

(ترجمة)

الشيخ الطبيب المشهور بابن جلجل من كتاب مناقب الاطباء لابن أبي أصيبعة المذ

(ملحقة)

بكتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر
للشيخ عبد اللطيف البغدادي رحمه الله تعالى

ابن جلجل هو أبو داود سليمان بن حسان يعرف بابن جلجل كان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات جيد التصرف في صناعة الطب وكان في أيام هشام المؤيد بالله خدمه بالطب وله بصيرة واعتناء بقوى الادوية المفردة وقد فسر أسماء الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس العين زربي وافصح عن مكنونها واوضح مستغلق مضمونها وهو يقول في أول كتابه هذا ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل فكان المترجم له اصطوفان من تلك الاسماء اليونانية في وقته فما عرف له اسما في اللسان العربي فسره بالعربية وما لم يعلم له في اللسان العربي اسما تركه في الكتاب على اسمه اليوناني اتكالا منه على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي اذ التسمية لا تكون الا بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الادوية بما رأوا وان يسموا ذلك اما باشتقاق واما من ذلك بتواطئهم على التسمية فاتكل اصطوفان على شخوص يأتون بعده ممن قد يعرف أعيان الادوية التي لم يعرف هو لها اسما في وقته وليسميها على قدر ما سمع في ذلك الوقت فيخرج الى المعرفة قال ابن جلجل وورد هذا الكتاب الى الاندلس وهو على ترجمة اصطوفان منه ما عرف له أسماء بالعربية ومنه ما لم يعرف له اسما فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق والاندلس الى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد وهو يومئذ صاحب الاندلس فكاتبه ارمانيوس الملك ملك القسطنطينية أحسب في سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وهاداه بهدايا لها قدر عظيم وكان في جملة هديته كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي الذي هو اليوناني وبعث معه كتاب هروشيش صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص

الملوك الاولى وفوائد عظيمة وكتب ارمانيوس في كتابه الى الناصر ان كتاب
ديوسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى و يعرف
أشخاص تلك الادوية فان كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب
وأما كتاب هرشيوش فعندك فى بلدك من اللاطينيين من يقرؤه باللسان اللاطينى وان
كشفتهم عليه نقلوه لك من اللاطينى الى اللسان العربى قال ابن جلجل ولم يكن يومئذ
بقرطبة من نصارى الاندلس من يقرأ الاغريقى الذى هو اليونانى القديم فبقى كتاب
ديسقوريدس فى خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الاغريقى ولم يترجم الى اللسان
العربى و بقى الكتاب بالاندلس والذى بين أيدى الناس ترجمة اصطفان الواردة
من مدينة السلام بغداد فلما جاوب الناصر ارمنيوس الملك سأله ان يبعث اليه برجل
يتكلم بالاغريقى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين فبعث اليه ارمانيوس
الملك براهب كان يسمى نقولا فوصل الى قرطبة سنة أربعين وثلاثمائة وكان يومئذ
بقرطبة من الاطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء
عقاقير ديسقوريدس الى العربية وكان أبحثهم وأحرصهم الى ذلك من جهة التقرب
الى الملك عبد الرحمن الناصر حسداى بن بشروط الاسرائيلى وكان نقولا الراهب عنديه
احظا الناس وأخصهم به وفسر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولا
وهو أول من عمل بقرطبة الترياق على تصحيح الشجارية التى فيه وكان فى ذلك الوقت من
الاطباء الباحثين عن أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجار
ورجل كان يعرف بالبسباسى وأبو عثمان الجزار الملقب باليابسى ومحمد بن سعيد
الطبيب وعبد الرحمن بن اسحاق بن هيثم وأبو عبد الله الصقلى وكان يتكلم باليونانية
و يعرف أشخاص الادوية قال ابن جلجل وكان هؤلاء النفر كلهم فى زمان واحد مع نقولا
الراهب أدركتهم وأدركت نقولا الراهب فى أيام المستنصر وصحبتهم فى أيام المستنصر
الحكم وفى صدر دولته مات نقولا الراهب فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء
عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية
الاندلس ما ازال الشك فيها عن القلوب وأوجب المعرفة بها والوقوف على أشخاصها
وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف الا القليل منها الذى لا بال به ولا خطر له وذلك يكون

فى

في مثل عشرة أدوية قال وكان لى في معرفة تصحيح هيولى الطب الذى هو أصل الادوية المركبة حرص شديد وبحث عظيم وهبنى الله من ذلك بفضله بقدر ما اطلع عليه من نيتى في احياء ما خفت ان يدرس وتذهب منفعته لابدان الناس فالله قد خلق الشفا وبثه فيما انبته الارض واستقر عليها من الحيوان المشاء والسائح في الماء والمنساب وما يكون تحت الارض في جوفها من المعدنية كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق ولابن جلجل من الكتب كتاب تفسير أسماء الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ألفه في شهر ربيع الآخرة سنة اثنين وسبعين وثلثمائة بمدينة قرطبة في دولة هشام بن الحكم المؤيد بالله ومقالة في ذكر الادوية التى لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به ومالا يستعمل لكى لا يغفل ذكره قال ابن جلجل ان ديسقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره أما لانه لم يره ولم يشاهده عيانا وأما لان ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه ورسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين وكتاب يتضمن ذكر شئ من أخبار الاطباء والفلاسفة في أيام المؤيد بالله

❊(فهرست الفصول والمواد)❊

الموجوده فى كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر لعبد اللطيف البغدادى

صحيفه

كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة
والحوادث المعاينة بارض مصر

لعبد اللطيف البغدادى

(طبعة اولى)
بمطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٦

❊(ترجمة)❊

الشيخ عبد اللطيف البغدادي من كتاب مناقب الاطباء لموفق الدين ابن القاسم ابن خليفة الخزرجي المعروف بابن أبي اصيبعة المتوفى

(موفق الدين عبد اللطيف البغدادي)

هو الشيخ الامام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعيد ويعرف بابن اللباد موصلي الاصل بغدادي المولد كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف وكان متميزا في النحو واللغة العربية عارفا بعلم الكلام والطب وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها وكان يتردد اليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الاطبا للقراءة عليه وكان والده قد أشغله بسماع الحديث في صباه من جماعة منهم أبو الفتح محمد بن عبد الباقي المعروف بابن البطي وأبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل وغيرهم وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشتغلا بعلم الحديث بارعا في علوم القرآن والقرا آت مجيدا في المذهب والخلاف والاصولين وكان متطرفا من العلوم العقلية وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين فقيها . اوكان الشيخ موفق الدين عبد اللطيف كثير الاشتغال لا يخلي وقتا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابه والذي وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا بحيث انه كتب من مصنفاته نسخا متعددة وكذلك أيضا كتب كتبا كثيرة من تصانيف القدماء وكان صديقا لجدي وبينهما صحبة اكيدة بالديار المصرية لما كانا بها وكان أبي وعمي يشتغلان عليه بعلم الادب واشتغل عليه عمي أيضا بكتب ارسطوطاليس وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها والفهم لمعانيها واتى الى دمشق من الديار المصرية واقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمه ورأيته لما كان مقيما بدمشق في آخر مرة اتى اليها وهو شيخ نحيف الجسم ربع القامه حسن الكلام جيد العبارة وكانت مسطرته ابلغ من لفظه وكان رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى من نفسه وكان يستنقص الفضلاء الذين في زمانه وكثيرا من المتقدمين وكان وقوعه كثيرا جدا في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصا الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه

ونقلت* من خطه فى سيرته التى ألفها ما هذا مثاله قال (انى ولدت بدار الجدى فى درب
القالوذج فى سنة سبع وخمسين وخمسمائه وتربيت فى حجر الشيخ ابى النجيب لا اعرف
اللعب واللهو واكثر زمانى مصروف فى سماع الحديث وأخذت لى اجازات من شيوخ
بغداد وخراسان والشام ومصر وقال لى والدى يوما قد اسمعتك جميع عوالى بغداد
والحقتك فى الرواية بالشيوخ المسان وكنت فى اثناء ذلك اتعلم الخط واتحفظ القرآن
والفصيح والمقامات وديوان المتنبى ونحو ذلك ومختصرات الفقه ومختصرات النحو فلما
ترعرعت حملنى والدى الى كمال الدين عبد الرحمن الانبارى وكان يومئذ شيخ بغداد وله
بوالدى صحبة قديمة ايام التفقه بالنظامية فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذر كلاما كثيرا
متتابعا لم افهم منه شيئا لكن التلاميذ حوله يعجبون منه ثم قال انا اجفو عن تعليم
الصبيان احمله الى تلميذى الوجيه الواسطى يقرأ عليه فاذا توسطت حاله قرأ على وكان
الوجيه عند بعض أولاد رئيس الرؤساء وكان رجلا أعمى من أهل الثروة والمروءة
فأخذنى بكلتى يديه وجعل يعلمنى من أول النهار الى آخره بوجوه كثيرة من التلطف
فكنت أحضر حلقته بمسجد الظفرية ويجعل جميع الشروحات لى ويخاطبنى بها وفى آخر
الامر اقرأ درسى ويخصنى بشرحه ثم نخرج من المسجد ويذاكرنى فى الطريق فاذا بلغنا
منزله أخرج الكتب التى يشتغل بها مع نفسه فاحفظه واحفظ معه ثم يذهب الى الشيخ
كمال الدين فيقرأ درسه ويشرح له وأنا أسمع وتخرجت الى أن صرت أسبقه فى الحفظ
والفهم وأصرف أكثر الليل فى الحفظ والتكرار وأقمنا على ذلك برهة كلما مر حفظى
كثر وجاد وفهمى قوى واستنار وذهنى احتد واستقام وأنا ألازم الشيخ وشيوخ الشيخ
وأول ما ابتدأت حفظت اللمع فى ثمانية أشهر وأسمع كل يوم شرح أكثرها مما يقرأه
غيرى وانقلب الى بيتى وأطالع شرح الثمانينى وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح
ابن برهان الدين وكلما أجد من شروحها وأشرحها التلاميذ يختصون بى الى أن صرت
أتكلم على كل باب كراريس ولا ينفد ما عندى ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة
حفظا متقنا أما النصف الاول ففى شهور وأما تقويم اللسان ففى أربعة عشر يوما لانه
كان أربعة عشر كراسا ثم حفظت مشكل القرآن له وغريب القرآن له وكل ذلك فى مدة
يسيرة ثم انتقلت الى الايضاح لابى على الفارسى فحفظته فى شهور كثيرة ولازمت

مطالعة

مطالعة شروحه وتتبعته التتبع التام حتى تبحرت فيه وجمعت الشراح وأما التكملة فحفظتها فى أيام يسيرة كل يوم كراسا وطالعت الكتب المبسوطة والمختصرات وواظبت على المقتضب للمبرد وكتاب بن درستوية وفى اثناء ذلك لا اغفل عن سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب وهى مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب قال وللشيخ كمال الدين مائة تصنيف وثلاثون تصنيفا أكثرها فى النحو وبعضها فى الفقه والاصولين وفى التصوف والزهد وأتيت على أكثر تصانيفه سماعا وقراءة وحفظا وشرع فى تصنيفين كبيرين احدهما فى اللغة والاخر فى الفقه ولم يتفق له اتمامهما وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه واكببت على المقتضب فاتممته وبعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافى ثم قرأت على ابن عبيدة الكرخى كتبا كثيرة منها كتاب الاصول لابن السراج والنسخة فى وقف ابن الخشاب برباط المأمونية وقرأت عليه الفرائض والعروض للكاتب التبريزى وهو من خواص تلاميذ ابن الشجرى وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءته معانى الزجاج على الكاتبة شهدة بنت الابرى وسمعت منه الحديث المسلسل وهو (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السما) وقال أيضا موفق الدين البغدادى ان مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد امين الدولة بن التلميذ وبالغ فى وصفه وكثر وهذا فالكثرة بغضه للعراقيين والا فولد امين الدولة لم يكن بهذه المثابة ولا قريبا منها وقال انه ورد الى بغداد رجل مغربى طويل فى زى التصوف له ابهة وليس مقبول الصورة عليه مسحة الدين وهيئة الشياخة يعتقل بصورته من رأه قبل ان يخبره يعرف بابن تانلى يزعم انه من أولاد الملثمة خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن فلما استقر ببغداد اجتمع اليه جماعة من الاكابر والاعيان وحضره الرضى القزوينى وشيخ الشيوخ ابن سكينة وكنت واحدا ممن حضره فاقرأنى مقدمة حساب ومقدمة ابن باب شاذ فى النحو وكان له طريق فى التعليم عجيب ومن يحضره يظن انه متبحر وانما كان متطرفا لكنه كان قد امعن فى كتب الكيميا والطلسمات وما يجرى مجراها وأتى على كتب جابر باسرها وعلى كتب ابن وحشية وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وأبهته خلاقلبى شوقا الى العلوم كلها واجتمع بالامام الناصر لدين الله وأعجبه ثم سافر وأقبلت على الاشتغال وشمرت ذيل الجد والاجتهاد وهجرت النوم واللذات

وأكببت على كتب الغزالى المقاصد والمعيار والميزان ومحك النظر ثم التفت الى كتب ابن سينا صغارها وكبارها وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفا وبحثت فيه وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سينا وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان الصوفى وابن وحشية وباشرت عمل الصنعة الباطلة وتجارب المحال والضلال الفارغة وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تم به فلسفته التى لا تزداد بالتمام الا انقصا قال ولما كان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ قلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتى لكن وجدت الكمال بن يونس جيدا فى الرياضيات والفقه متطرفا من باقى اجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيميا وعملها حتى كان يستخف بكل ما عداها فاجتمع الى جماعة كثيرة وعرضت على المناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التى تحتها واقمت بالموصل سنة كاملة فى اشتغال دائم متواصل ليلا ونهارا وزعم أهل الموصل انهم لم يروا من أحد قبلى ما رأوا منى من سعة الحفظ وسرعة الخاطر وسكون الطائر وسمعت الناس يهرجون فى حديث الشهاب السهروردى المتفلسف ويعتقدون انه قد فاق الاولين والآخرين وان تصانيفه فوق تصانيف القدماء فهممت لقصده ثم ادركنى التوفيق وطلبت من ابن يونس شيئا من تصانيفه وكان أيضا معتقدا فيها فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج فصادفت فيها ما يدل على جهل اهل الزمان ووجدت تعاليق كثيرة لا ارتضيها هى خير من كلام هذا الانوك وفى اثناء كلامه يثبت حروفا مقطعة يوهم بها امثاله انها أسرار الهية قال ولما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحى جمعا كثيرا منهم جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبى النجيب وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء وابن طلحة الكاتب وبيت ابن جهير وابن العطار الوزير المقتول وابن هبيرة الوزير واجتمعت بالكندى البغدادى النحوى وجرى بيننا مباحثات وكان شيخا بهيا ذكيا مثريا له جانب من السلطان لكنه كان معجبا بنفسه مؤذيا لجليسه وجرت بيننا مباحثات وأظهرنى الله تعالى عليه فى مسائل كثيرة ثم انى أهملت جانبه فكان يتأذى باهمالى له اكثر مما يتأذى الناس منه وعملت بدمشق تصانيف جمة منها غريب الحديث الكبير جمعت فيه غريب ابى عبيد القاسم بن سلام

وغريب

وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابي وكنت ابتدأت به في الموصل وعملت له مختصرا سميته المجرد وعملت كتاب الواضحة في اعراب الفاتحة نحو عشرين كراسا وكتاب الالف واللام وكتاب رب وكتابا في ذات والصفات الذاتية الجارية على السنة المتكلمين وقصدت بهذه المسئلة الرد على الكندي ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن نائلي نازلا بالمأذنة الغربية وقد عكف عليه جماعة وتحزب الناس فيه حزبين له وعليه فكان الخطيب الدولعي عليه وكان من الاعيان له منزلة وناموس ثم خلط ابن نائلي على نفسه فاعان عدوه عليه وصار يتكلم في الكيميا والفلسفة وكثر التشنيع عليه واجتمعت به فصار يسألني عن اعمال اعتقدانها خسيسة نزرة فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها مني وكاشفته فلم أجده كما كان في نفسي فساءظني به وبطريقه ثم باحثته في العلوم فوجدت عنده منها اطرافا نزرة فقلت له يوما لوصرفت زمانك الذي ضيعته في طلب الصنعة الى بعض العلوم الشرعية والعقلية كنت اليوم فريد عصرك مخدوما طول عمرك وهذا هو الكيميا الا ما تطلبه ثم اعتبرت بحاله واتعظت بسوء مآله والسعيد من وعظ بغيره واقلعت ولكن لا كل الاقلاع ثم انه توجه الى صلاح الدين بظاهر عكة يشكو اليه الدولعي وعاد مريضا وحمل الى البيمارستان فمات به وأخذ كتبه لمعتمد شحنة دمشق وكان متيما بالصنعة ثم اني توجهت الى زيارة القدس ثم الى صلاح الدين بظاهر عكة فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد قاضي العسكر يومئذ وكان قد اتصل به شهرتي بالموصل فانبسط الي وأقبل علي وقال نجتمع بعماد الدين الكاتب فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين فوجدته يكتب كتابا الى ديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة وقال هذا كتاب الى بلدكم وذاكرني في مسائل من علم الكلام وقال قوموا بنا الى القاضي الفاضل فدخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات بقوة حرصه في اخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة اعضائه وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى: حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها) أين جواب اذا وأين جواب لو في قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) وعن مسائل كثيرة ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملا وقال لي ترجع الى دمشق ونجري عليك الجرايات فقلت اريد مصر فقال السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكة

وقتل المسلمين بها فقلت لا بد لي من مصر فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها فلما
دخلت القاهرة جاءني وكيله وهو ابن سناء الملك وكان شيخا جليل القدر نافذ الامر
فانزلني دارا قد ازيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة ثم مضى الى أرباب الدولة وقال هذا
ضيف القاضي الفاضل فدرت الهدايا والصلات من كل جانب وكان كل عشرة ايام
او نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل
يؤكد الوصية في حقي واقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ رحمه الله أقرئ الناس وكان قصدي
في مصر ثلاثة انفس ياسين السيمياوي والرئيس موسى ابن ميمون اليهودي وابو القاسم
الشارعي وكلهم جاؤوني اما ياسين فوجدته محاليا كذابا مشعبذا يشهد للشاقاني
بالكيميا ويشهد له الشاقاني بالسيميا ويقول عنه انه يعمل أعمالا يعجز موسى ابن عمران
عنها وانه يحضر الذهب المضروب متى شاء وبأي مقدار شاء وباي سكة شاء وانه يجعل ماء
النيل خيمة ويجلس فيها واصحابه تحتها وكان ضعيف الحال وجاءني موسى فوجدته
فاضلا في الغاية قد غلب عليه حب الرياسة وخدم أرباب الدنيا وعمل كتابا في الطب
جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وشرط ان لا يغير فيه حرفا
الا ان يكون واو عطف أو فاء وصل وانما ينقل فصولا يختارها وعمل كتابا لليهود سماه
كتاب الدلالة ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفسد
أصول الشرائع والعقائد بما يظن انه يصلحها وكنت ذات يوم بالمسجد وعندي جمع كثير
فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم
وأخذت في اتمام كلامي فلما تصرم المجلس جاءني امام المسجد وقال أتعرف هذا الشيخ
هذا أبو القاسم الشارعي فاعتنقته وقلت اياك أطلب فاخذته الى منزلي وأكلنا الطعام
وتفاوضنا الحديث فوجدته كما تشتهي الانفس وتلذ الاعين سيرته سيرة الحكماء العقلاء
وكذا صورته قد رضي من الدنيا ببرض لا يتعلق منها بشيء يشغله عن طلب الفضيلة
ثم لازمني فوجدته قيما بكتب القدماء وكتب ابي نصر الفارابي ولم يكن لي اعتقاد
في احد من هؤلاء لاني كنت اظن ان الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه واذا
تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن ويغلبني بقوة الحجة وفضل المحجة
وانا لا التين قناتي لغمزه ولا احيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه فصار يحضر لي شيئا بعد
شيء

شيء من كتب ابي نصر والاسكندر وثامسطيوس يؤنس بذلك نفاري وبابن عمر بمكة شماسي حتى عطفت عليه اقدم رجلا واخر اخرى وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فنادت الضرورة الى التوجه اليه فأخذت من كتب القدماء ما امكنني وتوجهت الى القدس فرأيت ملكا عظيما لا العين روعة والقلوب محبة قريبا بعيدا سهلا محبيا واصحابه يتشبهون به يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى (ونزعنا ما في قلوبهم من غل) واول ليلة حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ويتأسى به جميع الناس الفقراء والاغنياء والاقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ويركب العصر ويرجع في المشاعل ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا وكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار اورجعت الى دمشق وأكببت على الاشتغال وأقرئ الناس في الجامع وكلما امعنت في كتب القدماء أزددت فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة وأطلعت على بطلان الكيميا وعرفت حقيقة الحال في وضعها ومن وضعها وتكذب بها وما كان قصده في ذلك وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين وتضاعف شكري لله سبحانه على ذلك فان اكثر الناس انما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيميا ثم ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ثم رجع فحم ففصده من لا خبرة عنده فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء ومارأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لانه كان محبوبا يحبه البار والفاجر والمسلم والكافر ثم تفرق اولاده واصحابه ايادي سبا ومزقوا في البلاد كل ممزق واكثرهم توجه الى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها واقت بدمشق وملكها الملك الافضل وهو اكبر الاولاد في السن الى ان جاء الملك العزيز بعساكر مصر محاصرا اخاه بدمشق فلم ينل منه بغية ثم تأخر الى مرج الصفر بقولنج عرض له فخرجت اليه بعد خلاصه منه فأذن لي بالرحيل معه واجرى علي من بيت المال

كفايتي وزيادة واقمت معه والشيخ ابو القاسم يلازمني صباح مساء الى ان قضى نحبه ولما اشتد مرضه وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه وأشرت عليه بدواء فانشد

لا اذود الطير عن شجر ❀ قد بلوت المر من ثمره

ثم سألته عن المه فقال (ما لجرح بميت ايلام) وكانت سيرتي في هذه المدة ان أقرى الناس بالجامع الازهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة و وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار ارجع الى الجامع الازهر و يقرى قوم آخرون وفي الليل اشتغل مع نفسي ولم أزل على ذلك الى أن توفي الملك العزيز وكان شابا كريما شجاعا كثير الحياء لا يحسن قول لا وكان مع حداثة سنه وشره شبابه كامل العفة عن الاموال والفروج أقول ثم ان الشيخ موفق الدين اقام بالقاهرة بعد ذلك مدة وله الرواتب والجرايات من اولاد الملك الناصر صلاح الدين واتى الى مصر ذلك الغلا العظيم و الموتان الذى لم يشاهد مثله والف الشيخ موفق الدين في ذلك كتابا ذكر فيه اشياء شاهدها وسمعها من عاينها تذهل العقل وسمى ذلك الكتاب كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب الديار المصرية واكثر الشام والشرق وتفرقت اولاد اخيه الملك الناصر صلاح الدين وانتزع ملكهم توجه الشيخ موفق الى القدس واقام بها مدة وكان يتردد الى الجامع الاقصى ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم وصنف هنالك كتبا كثيرة ثم انه توجه الى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية بها وذلك في سنة اربع وستمائة وشرع في التدريس والاشتغال وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه و يقرؤن اصنافا من العلوم وتميز في صناعة الطب بدمشق وصنف في هذا الفن كتبا كثيرة وعرف به واما قبل ذلك فانما كانت شهرته بعلم النحو واقام بدمشق مدة وانتفع الناس به ثم انه سافر الى حلب وقصد بلاد الروم واقام بها سنين كثيرة وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب ارزنجان وكان مكينا عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والاتفادات الكثيرة وصنف باسمه عدة كتب وكان هذا الملك عالي الهمة كثير الحياء كريم النفس وقد اشتغل بشئ من العلوم ولم يزل في خدمته الى أن استولى على ملكه صاحب أرزن الروم وهو السلطان كيقباذ بن كيخسرو بن قلج

ارسلان

ارسلان ثم قبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر قال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف ولما كان في سابع عشر ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وستمائة توجهت الى أرزن الروم وفي حادي عشر صفر من سنة ست وعشرين رجعت الى أرزنجان من أرزن الروم وفي نصف ربيع الاول توجهت الى كماخ وفي جمادى الاولى توجهت منها الى دبركي وفي رجب توجهت منها الى ملطية وفي آخر رمضان توجهت الى حلب وصلينا صلاة عيد الفطر بالبهنسي ودخلنا حلب يوم الجمعة تاسع شوال ووجدناها قد تضاعفت عمارتها وخيرها وامنها بحسن سيرة أتابك شهاب الدين واجمع الناس على محبته لعدلته في رعيته أقول وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه وكثرت تصانيفه وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن وهو متخل لتدريس صناعة الطب وغيرها ويتردد الى الجامع بحلب ليسمع الحديث ويقرى العربية وكان دائم الاشتغال ملازما للكتابة والتصنيف ولما أقام بحلب قصدت انى أتوجه اليه واجتمع به ولم يتفق ذلك وكانت كتبه ابدا تصل الينا ومراسلاته وبعث الى اشياء من تصانيفه بخطه وهذا نسخة كتاب كتبته اليه لما كان بحلب (المملوك يواصل بدعائه وثنائه وشكره وانتمائه الى عبودية المجلس السامي المولى السيد السند الاجل الكبير العالم الفاضل موفق الدين سيد العلماء في الغابرين والحاضرين جامع العلوم المتفرقة في العالمين ولي امير المؤمنين اوضح الله به سبل الهداية وانار ببقائه طرق الدراية وحقق بحقائق الفاظه صحيح الرواية ولا زالت سعادته دائمة البقا وسيادته سامية الارتقا وتصانيفه في الآفاق قدوة العلماء وعمدة سائر الادباء والحكماء المملوك يجدد الخدمة ويهدي من السلام اطيبه ومن الشكر والثناء اعذبه وينهي ما يكابده من الم التطلع الى مشاهدة انوار شمسه المنيرة وما يعانيه من الارتياح الى ملاحظة شريف حضرته الاثيرة وما تزايد من القلق وتعاظم عند سماعه قرب المزار من الارق

وابرح ما يكون الشوق يوما ❊ اذا دنت الديار من الديار

ولولا امل قفول الركاب العالي ووصول الجناب الموفقي الجلالي لسارع المملوك الى الوصول ولبادر المبادرة بالمثول ولجاء الى شريف خدمته وفاز بالنظر الى بهي طلعته فيا سعادة من فاز بالنظر اليه ويا بشرى من مثل بين يديه ويا سرور من

حظي بوجه اقباله عليه ومن ورد بحار فضله وتروى من غديرها واستضاء بشمس علومه فسرى في ضياء منيرها نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع وتحصيل الجمع بين مسرتي الابصار والاسماع بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى ومن مراسلات الشيخ موفق الدين عبد اللطيف انه بعث الى ابى في أول كتاب وهو يقول فيه عني ولد الولد اعز من الولد وهذا موفق الدين ولد الولد واعز الناس عندي وما زالت النجابة تتبين لي فيه من الصغر ووصف واثنى كثيرا وقال فيه ولو امكنني ان اتى اليه بالقصد ليشتغل علي لفعلت وبالجملة انه كان عزمه ان يأتي دمشق ويقيم بها ثم خطر له انه قبل ذلك يحج ويجعل طريقه على بغداد وان يقدم بها الى الخليفة المستنصر بالله اشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض في اثناء ذلك وتوفي رحمه الله يوم الاحد ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة ودفن بالوردية عند ابيه وذلك بعد ان خرج عن بغداد وبقي غائبا عنها خمسا واربعين سنة ثم ان الله تعالى ساقه اليها وقضى منيته بها

ومن كلام موفق الدين عبد اللطيف البغدادي مما نقلته من خطه قال ينبغي ان تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات وتسأل الله الاعانة على ذلك وقال اوصيك ان لا تأخذ العلوم من الكتب وان وثقت من نفسك بقوة الفهم وعليك بالاستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ولو كان الاستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى تجد اكمل منه وعليك بتعظيمه وترحيبه وان قدرت ان تفيده من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك واذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على ان تستظهره وتملك معناه وتوهم ان الكتاب قد عدم وانك مستغن عنه لا تحزن لفقده واذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه فاياك ان تشتغل باخر معه واصرف الزمن الذي تريد صرفه في غيره اليه واياك ان تشتغل بعلمين دفعة واحدة وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ولا تظن انك اذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج الى مراعاته لينمي ولا ينقص ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدي بالتحفظ والتعلم ومباحثة الاقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف

واذا

واذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم فان كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره فان استعانتك فى علم بعلم عجز عن استيفاء اقسامه كمن يستعين بلغة فى لغة أخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها قال وينبغى للانسان ان يقرأ التواريخ وان يطلع على السير وتجارب الامم فيصير بذلك كأنه فى عمره القصير قد أدرك الامم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم قال و ينبغى ان تكون سيرتك سيرة الصدر الاول فاقرأ سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتتبع أحواله وأفعاله واقتف آثاره وتشبه به ما امكنك و بقدر طاقتك واذا وقفت على سيرته فى مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه و تطببه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأفعاله مع أعدائه وفعلت اليسير من ذلك فانت السعيد كل السعيد قال و ينبغى ان تكثر اتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداد الزلل ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء لم يعرف الفضيلة ومن لم يخجلوه لم يبجلوه الناس ومن لم يبكتوه لم يسود ومن لم يحتمل الم التعلم لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح لم يفلح واذا خلوت من التعلم والتذكر فحرك لسانك بذكر الله وبتسابيحه وخاصة عند النوم فيشربه لبك و يتعجن فى خيالك وتتكلم به فى منامك واذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات واذا احزنك أمر فاسترجع واذا اعترتك غفلة فاستغفر واجعل الموت نصب عينك والعلم والتقى زادك الى الاخرة واذا أردت ان تعصى الله فاطلب مكانا لا يراك فيه واعلم ان الناس عيون الله على العبد يريهم خيره وان اخفاه وشره وان ستره فباطنه مكشوف لله والله يكشفه لعباده وعليك ان تجعل باطنك خيرا من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ولا تتألم اذا اعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل وقلما يتعلق فى العلم ذو الثروة الا ان يكون شريف الهمة جدا او ان تثرى بعد تحصيل العلم وانى لا أقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذى يعرض عنها لان همته مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا والدنيا انما تحصل بحرص وفكر فى وجوهها فاذا غفل عن أسبابها لم تأته وأيضا فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات وعن التذلل

لارباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخواننا بيت شعر

من جد فى طلب العلوم أفاته ※ شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق فيها وصرف الزمان اليها والمشتغل بالعلم لا يسعه شئ من ذلك وانما ينتظران تأتيه الدنيا بلا سبب وتطلبه من غيران يطلبها طلب مثلها وهذا ظلم منه وعدوان ولكن اذا تمكن الرجل فى العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة وأخذها وماء وجهه موفر وعرضه ودينه مصون واعلم ان الدين عقبة وعرف ينادى على صاحبه ونور وضياء يشرق عليه ويدل عليه كاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته وكمن يمشى بشعل فى ليل مدلهم والعالم مع هذا محبوب أين ما كان وكيف ما كان لا يجد الا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح بمدانانه واعلم ان العلوم تغور ثم تفور تغور فى زمان وتفور فى زمان بمنزلة النبات أو عيون المياه وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع ومن كلامه أيضا نقلته من خطه قال اجعل كلامك فى الغالب بصفات ان يكون وجيزا فصيحا فى معنى مهم أو مستحسن فيه الغاز ما وابهام كثيرا وقليل ولا تجعله مهملا ككلام الجمهور بل ارفعه عنهم ولا تباعده عليهم جدا وقال اياك الهذر والكلام فيما لا يعنى واياك والسكوت فى محل الحاجة ورجوع النوبة اليك اما لاستخراج حق أو اجتلاب مودة أو تنبيه على فضيلة واياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبتير الكلام بل اجعل كلامك سردا بسكون ووقار بحيث يستشعر منك ان وراءه اكثر منه وانه عن خبرة سابقة ونظر متقدم وقال واياك والغلظة فى الكتاب والجفا فى المناظرة فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعدم حلاوته ويجلب الضغائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلا سكوته أشهى الى السامع من كلامه ويثير النفوس على معاندته ويبسط الالسن بمخاشنته واذهاب حرمته وقال لا تترفع بحيث تستثقل ولا تتنازل بحيث تستخس وتستحقر وقال اجعل كلامك كله جدلا واجب من حيث تعقل لا من حيث تعتاد وتألف وقال انتزع عن عادات الصبى وتجرد عن مألوفات الطبيعة واجعل كلامك لاهيا يتاتى الغالب لا ينفك عن خبر أو قرآن أو قول حكيم أو بيت نادر أو مثل سائر وقال تجنب الوقيعة فى الناس وسب الملوك والغلظة على المعاشر وكثرة

الغضب

الغضب وتجاوز الحد فيه وقال استكثر من حفظ الاشعار الامثالية والنوادر الحكمية والمعانى المستغربة ومن دعائه رحمه الله تعالى قال اللهم أعذنا من شموس الطبيعة وجموح النفس الردية وسلس لنا مقاد التوفيق وخذ بنا فى سواء الطريق يا هادى العمى يا مرشد الضلال يا محيى القلوب الميتة بالايمان يا منير ظلمة الضلالة بنور الايقان خذ بايدينا من مهواة الهلكة نجنا من ردغة الطبيعة طهرنا من درن الدنيا الدنية بالاخلاص لك والتقوى انك مالك الآخرة والدنيا وتسبيح له أيضا قال سبحان من عم بحكمته الوجود واستحق بكل وجه ان يكون هو المعبود تلألأت بنور جلالك الآفاق وأشرقت شمس معرفتك على النفوس اشراقا وأى اشراق ولموفق الدين عبد اللطيف البغدادى من الكتب كتاب غريب الحديث جمع فيه غريب أبى عبيد القاسم بن سلام وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابى كتاب المجرد من غريب الحديث كتاب الواضحة فى اعراب الفاتحة كتاب الالف واللام مسألة فى قوله سبحانه اذا أخرج يده لم يكد يراه مسألة نحوية مجموع مسائل نحوية وتعاليق كتاب رب شرح بانت سعاد كتاب ذيل الفصيح الكلام فى ذات والصفات الذاتية الجارية على السنة المتكلمين شرح اوائل المفصل خمس مسائل نحوية شرح مقدمة ابن باب شاذ وسماه باللمع الكاملية شرح الخطب النباتية شرح الحديث المسلسل شرح سبعين حديثا شرح أربعين حديثا طبية كتاب الرد على ابن خطيب الرى فى تفسيره سورة الاخلاص كتاب كشف الظلامة عن قدامة شرح نقد الشعر لقدامة احاديث مخرجة من الجمع بين الصحيحين كتاب اللوا العزيز باسم الملك العزيز فى الحديث كتاب قوانين البلاغة عمله بحلب سنة خمس عشرة وستمائة حواشى على كتاب الخصائص لابن جنى كتاب الانصاف بين ابن برى وابن الخشاب فيما رد به ابن الخشاب على المقامات للحريرى وانتصار ابن برى للحريرى مسألة فى قولهم أنت طالق فى شهر قبل ما بعد قبله رمضان تفسير قوله عليه السلام الراحمون يرحمهم الرحمن كتاب قبسة العجلان فى النحو اختصار كتاب الصناعتين للعسكرى اختصار كتاب العمدة لابن رشيق مقالة فى الوفق كتاب الجلى فى الحساب الهندى اختصار كتاب النبات لابى حنيفة الدينورى كتاب آخر فى فنه مثله اختصار كتاب مادة البقاء للتميمى كتاب الفصول وهو بلغة الحكيم سبع مقالات فرغ منه فى شهر رمضان سنة ثمان وستمائة شرح كتاب الفصول لابقراط شرح

كتاب تقدمة المعرفة لابقرط اختصار شرح جالينوس لكتاب الامراض الحادة لابقراط
اختصار كتاب الحيوان لارسطوطاليس تهذيب مسائل ما بال لارسطوطاليس كتاب آخر
فى فنه مثله اختصار كتاب منافع الاعضاء لجالينوس اختصار كتاب اراء ابقراط وافلاطون
اختصار كتاب الجنين اختصار كتاب الصوت اختصار كتاب المنى اختصار كتاب الات النفس
اختصار كتاب العضل اختصار كتاب الحيوان للجاحظ كتاب فى الات التنفس وأفعالها ستة
مقالات مقالة فى قسمة الحميات وما يتقوم به كل واحد منها وكيفية تولدها كتاب النخبة
وهو خلاصة الامراض الحادة اختصار كتاب الحميات للاسرائلى اختصار كتاب البول
للاسرائلى اختصار كتاب النبض للاسرائلى كتاب أخبار مصر الكبير كتاب أخبار مصر الصغير
مقالتان وترجمه كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض
مصر وفرغ من تأليفه فى العاشر من شعبان سنة ثلاث وستمائة بالبيت المقدس كتاب تاريخ
وهو يتضمن سيرته ألفه لولده شرف الدين يوسف مقالة فى العطش مقالة فى الماء مقالة
فى أحصا مقاصد الفلاسفة وأصفى الكتب فى كتبهم وما يتبع ذلك من المنافع والمضار
مقالة فى معنى الجوهر والعرض مقالة موجزة فى النفس مقالة فى الحركات المعتادة مقالة
فى العادات الكامنة فى الربوبية مقالة تشتمل على أحد عشر بابا فى حقيقة الدوا والغذا
ومعرفة طبقاتهما وكيفية تركيبهما مقاله فى المبادى بصناعة الطب مقالة فى شفا الضد
بالضد مقالة فى ديابيطس والادوية النافعة منه مقالة فى الزوائد حررها بحلب فى جمادى
الاخرة من سنة سبع عشرة وستمائة وكان قد وضعها بمصر سنة خمس وتسعين وخمسمائة
مقالة فى السقنقور مقاله فى الحنطة مقالة فى الشراب والكرم مقالة فى البحران صغيرة
رسالة الى مهندس فاضل عملى كتب بها اليه من مدينة حلب اختصار كتاب الادوية
المفردة لابن وافد اختصار كتاب الادوية المفردة لابن سمجون كتاب كبير فى الادوية
المفردة مختصر فى الحميات مقالة فى المزاج كتاب الكفاية فى التشريح كتاب الرد على ابن
الخطيب فى شرحه بعض كليات القانون والف كتابه هذا المعى رشيد الدين على بن خليفة
رحمه الله وأرسله اليه وكان تأليفه لذلك بحلب قبل توجهه الى بلاد الروم كتاب تعقب
حواشى ابن جميع على القانون مقالة يردفيها على كتاب على بن رضوان المصرى فى
اختلاف جالينوس وارسطوطاليس مقالة فى الحواس مقالة فى الكلمة والكلام

كتاب

كتاب السبعة كتاب تحفة الامل مقالة فى الرد على اليهود والنصارى مقالة فى ترتيب المصنفين كتاب الحكمة العلائية ذكر فيه أشياء حسنة فى العلم الالهى والف كتابه هذا لعلاء الدين داود ابن بهرام صاحب أرزنجان مقالة على جهة النوطئة فى المنطق حواشى على كتاب البرهان للفارابى كتاب الترياق فصول منتزعة من كلام الحكماء حل شئ من شكوك الرازى على كتب جالينوس كتاب المراقى الى الغاية الانسانية ثمانى مقالات مقاله فى ميزان الادوية المركبة من جهة الكميات مقالة فى موازنة الادوية والادوا من جهة الكيفيات مقالة فى تعقب أوزان الادوية مقالة أخرى فى المعنى وكشف الشبه وقعت لبعض العلماء مقالة فى المعنى فيها جواب ثلاث مسائل مقالة سادسة مختصرة مقالة تتعلق بموازين الادوية الطبية فى المركبات قول أخر فى المعنى مقالة فى التنفس والصوت والكلام مقالة فى اختصار كلام جالينوس فى سياسة الصحة انتزاعات من كتاب دياسقوريدس فى صفات الحشائش انتزاعات أخرى فى منافعها مقالة فى تدبير الحرب كتبها لبعض ملوك زمانه فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ووجدته أيضا وقد ترجمها مقالة فى السياسة العملية كتاب العمدة فى أصول السياسة مقالة فى جواب مسألة سأل عنها فى ذبح الحيوان وقتله وهل ذلك سائغ فى الطبع والعقل كما هو سائغ فى الشرع مقالتان فى المدينة الفاضلة مقالة فى العلوم الضارة رسالة فى الممكن مقالتان مقالة فى الجنس والنوع اجاب بها فى دمشق سؤال سائل فى سنة أربع وستمائة الفصول الاربعة المنطقية تهذيب كلام افلاطون حكم منثورة ايساغوجى مبسوط الواقعات مقالة فى النهاية واللانهاية كتاب الفطن فى المنطق والطبيعى والالهى مقالة فى كيفية استعمال المنطق وكتب بهذه المقالة الى من بلاد الروم مقالة فى حد الطب مقالة فى البادى بصناعة الطب مقالة فى اجزاء المنطق التسعة مجلد كبير مقالة فى القياس كتاب فى القياس خمسون كراسا ثم اضيف اليه المدخل والمقولات والعبارة والبرهان فجاء مقداره أربع مجلدات مقالة فى جواب مسألة فى التنبيه على سبيل السعادة الطبيعيات من السماع الى أخر كتاب الحس والمحسوس ثلاث مجلدات كتاب السماع الطبيعى مجلدان كتاب آخر فى الطبيعيات من السماع الى كتاب النفس كتاب العجيب حواشى على كتاب الثمانية المنطقية للفارابى شرح الاشكال البرهانية من ثمانية أبى نصر مقالة فى تزييف الشكل الرابع مقالة فى تزييف

ما يعتقده أبو علي ابن سينا من وجود اقيسة شرطية مقالة فى القياسات المختلطات
والصرف بابر امانياس مبسوط مقالة فى المقاييس الشرطية التى يظنها ابن سينا مقالة أخرى
فى المعنى أيضا كتاب النصيحتين للاطبا والحكما كتاب المحاكمة بين الحكيم والكيماوى
رسالة فى المعادن وابطال الكيميا مقالة فى الحواس عهد الى الحكما اختصار كتاب
الحيوان لابن أبي الاشعث اختصار كتاب القولنج لابن أبى الاشعث مقالة فى البرسام
مقالة فى العلة المراقية مقالة فى الرد على ابن الهيثم فى المكان مختصر فيما بعد الطبيعة مقالة
فى التحال ألفها بمصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة وبيضها بمدينة ارزنجان فى رجب
سنة خمس وعشرين وستمائة مقالة فى اللغات وكيفية تولدها مقالة فى الشعر مقالة فى
الاقيسة الوصفية مقالة فى القدر مقالة فى الملل الكتاب الجامع الكبير فى المنطق والعلم
الطبيعى والعلم الالهى وهو زهاء عشر مجلدات التام تصنيفه فى نحو نيف وعشرين سنة
كتاب المدهش فى أخبار الحيوان المتوج بصفات نبينا عليه أفضل الصلاه والسلام
قال ابتدأت بكراس منه بدمشق سنة سبع وستمائة وكمل فى أربعة أشهر
بحلب سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو فى مائة كراس
كتاب الثمانية فى المنطق وهو التصنيف
الوسط

تم

كتاب الافادة والاعتبار في الامور
المشاهدة والحوادث
المعاينة بارض مصر
لعبد اللطيف
البغدادي
م

كتاب الافادة والاعتبار

فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر

لعبد اللطيف البغدادى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على خاتم النبيين محمد النبى العربى وعلى آله الطاهرين وبعد فانى لما أنهيت كتابى فى أخبار مصر المشتمل على ثلاثة عشر فصلا رأيت ان أفرد منه الحوادث الحاضرة والآثار البادية المشاهدة اذ كانت أصدق خبرا وأعجب أثرا وان ما عداها قد يوجد بعضه أو كله فى كتب من سلف مجتمعا أو مفترقا فالفيت ذلك فى فصلين منه فجردتهما وجعلتهما مقالتين فى هذا الكتاب وزدت ونقصت بحسب ما اقتضته الحال رجاء ان يخف انهاؤه ويلطف موقعه عند عرضه على صاحب الامر وامام العصر امام الانام ومفترض الطاعة بموجب شريعة الاسلام خليفة الله فى أرضه ومنتهى مقر وحيه والقيم على العالم بامضاء أمر الله تعالى فيهم ونهيه سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ذى المواقف المقدسة النبوية الطاهرة الزكية الممجدة المعظمة الامامية الباهرة أنوارها الزاهرة آلاؤها لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شئ من أخبار بلاده وان تراخت أو يخفى بعض أحوال رعاياه وان تناءت وليعلم حفدة سدته وخواص دولته والعاكفون بحضرة قدسه والطائفون بحرم كعبته مقدار ما يدافع الله تعالى عنهم به فيزدادوا لله تعالى شكرا ليزيدهم بدوام دولة أمير المؤمنين عليهم فضلا وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وعلى العبد التقرب بالانهاء وان كانت العلوم النبوية اليها الانتهاء فان الله سبحانه تعبد أن يدعى جهرا وان كان يعلم السر وأخفى ليظهر على الجوارح ما تكن الضمائر فيكمل للمرء المسلم مراتب الايمان الثلاث عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح جعلنا الله ممن ترقى الى هذه الدرجة فى طاعته بطاعة خليفته فى أرضه صلوات الله عليه وعلى الخلفاء الراشدين من قبله

❋(المقالة الاولى وهى ستة فصول)❋

❋(الفصل الاوّل)❋
(فى خواص مصر العامّة لها)

انّ أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار الغريبة الاخبار وهى واديكتنفه جبلان شرقى وغربى والشرقى أعظمهما يبتديان من أسوان ويتقاربان باسنا حتى يكادا يتماسان ثم ينفرجان قليلا قليلا وكلما امتدّا طولا انفرجا عرضا حتى اذا أزيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فادونه ثم يتباعدان أكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الارض وجميع شعبه تصب فى البحر الملح

وهذا النيل له خاصتان (الاولى) بعد مرماه فانا لانعلم فى المعمورة نهرا أبعد مسافة منه لانّ مباديه عيون تأتى من جبل القمر وزعموا انّ هذا الجبل وراء خط الاستواء باحدى عشرة درجة وعرض أسوان وهى مبدأ أرض مصر اثنتان وعشرون درجة ونصف درجة وعرض دمياط وهى أقصى أرض مصر احدى وثلاثون درجة وثلث درجة فتكون مسافة النيل على خط مستقيم ثلاثا وأربعين درجة تنقص سدسا ومساحة ذلك تقريبا تسع مائة فرسخ هذا سوى ما يأخذ من التعريج والتوريب فان اعتبر ذلك تضاعفت المساحة جدًّا

والخاصة (الثانية) انه يزيد عند نضوب سائر الانهار ونشيش المياه لانه يبتدئ بالزيادة عند انتهاء طول النهار وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفى وحينئذ تفتح الترع وتفيض على الاراضى وعلة ذلك ان موادّ زيادته أمطار غزيرة دائمة وسيول متواصلة تمدّه فى هذا الاوان فان أمطار الاقليم الاوّل والثانى انما تغزر فى الصيف والقيظ

وأما أرض مصر فلها أيضا خواص منها انه لا يقع بها مطر الا مالا احتفال به وخصوصا صعيدها فأما أسافلها فقد يقع بها مطر جود لكنه لا يفى بحاجة الزراعة وأما دمياط والاسكندرية وماداناهما فهى غزيرة المطر ومنه يشربون وليس بأرض مصر عين ولا نهر سوى نيلها

ومنها ان أرضها رملية لا تصلح للزراعة لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز يأتيها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينضب الماء فيحرث ويزرع وكل سنة يأتيها طين جديد ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شئ منها كما يفعل في العراق والشام لكنها يخالف عليها الاصناف وقد لحظت العرب ذلك فانها تقول اذا كثرت الرياح جادت الحراثة لانها تجئ بتراب غريب وتقول أيضا اذا كثرت المؤتفكات زكا الزرع ولهذه العلة تكون أرض الصعيد زكية كثيرة الاتاء والريع اذ كانت أقرب الى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الارض فانها أسافة مضوية اذ كانت رقيقة ضعيفة الطين لانه يأتيها الماء وقد راق وصفا ولا أعرف شبيها بذلك الا ما حكى لي عن بعض جبال الاقليم الاول ان الرياح تأتيه وقت الزراعة بتراب كثير ثم يقع عليه المطر فيتلبد فيحرث ويزرع فاذا حصد جاءته رياح أخرى فنسفته حتى يعود أجرد كما كان أولا

ومنها ان الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التي لها فان أخص الاوقات باليبس في سائر البلاد أعني الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه لانه يمد في الصيف ويطبق الارض في الخريف فاما سائر البلاد فان مياهها تنش في هذا الاوان وتغزر في أخص الاوقات بالرطوبة أعني الشتاء والربيع ومصر اذ ذاك تكون في غاية القحولة واليبس ولهذه العلة تكثر عفوناتها واختلاف هوائها وتغلب على أهلها الامراض العفنية الحادثة عن اخلاط صفراوية وبلغمية وقلما تجد فيهم أمراضا صفراوية خالصة بل الغالب عليها البلغم حتى في الشباب والمحرورين وكثيرا ما يكون مع الصفرا خام وأكثر أمراضهم في آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلب عليها حميد العاقبة وتقل فيهم الامراض الحادة والدموية الوحية وأما أصحاؤهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم وأما صبيانهم فضاوون يغلب عليهم الدمامة وقلة النضارة وانما تحدث لهم البدانة والقسامة غالبا بعد العشرين وأما ذكاؤهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة بلدهم الذاتية لان رطوبته عرضية ولهذا كان أهل الصعيد أقحل جسوما وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة وكان ساكنو الفسطاط الى دمياط أرطب أبدانا والغالب عليهم البياض

وأما

ولما رأى قدماء المصريين ان عمارة أرضهم انما هى بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل الغاية القصوى من الزيادة

ومنها ان الصبا محجوبة عنهم بجبلها الشرقى المسمى المقطم فانه يستر عنها هذه الريح الفاضلة وقلما تهب عليهم خالصة اللهم الا نكبا ولهذا اختار قدماء المصريين ان يجعلوا مستقر الملك منف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقى الى الغربى واختار الروم الاسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط لقربه من المقطم فان الجبل يستر عما يلى لحفه أكثر مما يستر عما بعد منه ثم ان الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقل فى هوائهم النضج ويبقى زمانا على نهوة الليل ولذلك تجد المواضع المنكشفة للصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ولكثرة رطوبته يتسارع العفن اليها ويكثر فيها الفار ويتولد من الطين والعقارب تكثر بقوص وكثيرا ما تقتل بلسعها والبق المنتن والذباب والبراغيث تدوم زمانا طويلا

ومنها ان الجنوب اذا هبت عندهم فى الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جدا ويسمونها المريسى لمرورها على أرض المريس وهى من بلاد السودان وسبب بردها مرورها على برك ونقائع والدليل على صحة ذلك انها اذا دامت أياما متوالية عادت الى حرارتها الطبيعية وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا

* (الفصل الثانى) *

(فيما تختص به من النبات)

من ذلك البامية وهى ثمر بقدر ابهام اليد كانه جرا القثاء شديد الخضرة الا ان عليه زبيرا مشوكا وهو مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع فاذا شق انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز وفى تلك الابيات حب مصطف مستدير أبيض أصغر من اللوبيا هش يضرب الى الحلاوة وفيه قبض ولعابية كثيرة يطبخ أهل مصر به اللحم بأن يقطع مع قشوره صغارا ويكون طعاما لا بأس به الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة ولا يظهر فى طبيخه قبض بل لزوجة

ومن ذلك الملوخية ويسميها الاطباء الملوكية ولعمرى هى الخبازى البستانى والخطمى أيضا نوع من الخبازى البرى والملوخية أشد مائية ورطوبة من الخبازى وهى باردة

رطبة فى الاولى تزرع فى المباقل و يطبخ بها اللحم وهى كثيرة اللعابية وتزرع أيضا بالشام قليلا و يطبخ بها عندهم فى الندرة وهى ردية للمعدة لكنها تسكن الحرارة وتبرد و يسرع انحدارها لتزلقها قال الاسرائيلى رأيت نوعا ثامنا من الخبازى يسمى بمصر ملوخية السودان و يعرف بالعراق بالشوشنديا وقوته وفعله وسط بين الملوخية والخبازى لأنه أقل اغذاء من الملوخية وأكثر من الخبازى

ومن ذلك اللبخ وشجرته كالسدرة ريانضرة وثمرته بقدر الخلال الكبار وفى لونه الا انه مشبع الخضرة كلون المسن ومادام بجافقيه قبض كما فى البلح فاذا نضج طاب وحلا وعاد فيه لزوجة ونواته كنواة الاجاص أو كقلب اللوزة بيضاء الى الغبرة وتنكسر بسهولة فتنفلق عن لوزة ريا بيضاء لينة واذا بقيت ثلاثة أيام ضمرت وصلبت وكلما تطاول عليها الزمان اضمحل اللب و بقى القشر فارغا أو كالفارغ غير انه لا يتشنج بل يتقلقل اللب فيه لسعة المكان عليه وتجد فى طعم اللب مرارة ظاهرة ولذعا يبقى أثره فى اللسان مدة وقد حدثت على انه أحد ضروب الدند الثلاثة فقد قال ارسطو وغيره ان اللبخ كان بفارس سما قاتلا فنقل الى مصر فصار غذاء وقال نيقولاوس وأما اللبخ فقد كان فى أرض فارس قاتلا فنقل الى الشام والى مصر فصار جيدا مأكولا وهو قليل غال وانما تكون فى البلاد منه شجرات معدودات وأما خشبه ففى غاية الجودة صلب بحرى وأسود وهو عزيز ثمين وأهل مصر يحضرون اللبخ مع الفواكه والانقال وقال أبو حنيفة الدينورى اللبخ شجرة عظيمة مثل الاثاب اذا عظم وورقها كورق الجوز ولها جنا كجنا المحاط مر اذا أكل أعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن وهو من شجر الجبال ثم روى عن رجل من صعيد مصر ان اللبخ شجر عظام أمثال الدلب له ثمر اخضر يشبه التمر حلو جدا الا انه كريه جيد لوجع الاضراس قال واذا نشر ارعف ناشره وينشر فيبلغ ثمن اللوح خمسين دينارا ويجعله أصحاب المراكب فى بناء السفن لبعض العلل وزعم انه اذا ضم منه لوحان ضما شديدا وجعلا فى الماء سنة التحما وصارا لوحا واحدا وأكثر ما حكاه الدينورى لا أعرف صحته وقال ابن سمجون اللبخ يكون بمصر وثمرته جيدة للمعدة وقد يوجد عليه صنف من الرتيلا وورقه اذا جفف قطع الدم ذرورا والاسهال شربا وفيها قبض بين قال وأما نوى ثمره فيزعم أهل مصر ان أكله يحدث صمما

ومن

ومن ذلك الجميز وهو بمصر كثير جدا ورأيت منه شيأ بعسقلان والساحل وكأنه تين برى وتخرج ثمرته فى الخشب لا تحت الورق ويخلف فى السنة سبعة بطون ويوكل أربعة أشهر ويحمل وقرا عظيما وقبل ان يجنى بأيام يصعد رجل الى الشجرة ومعه حديدة يسم بها حبة حبة من الثمرة فيجرى منها لبن ابيض ثم يسود الموضع وتحلوا الثمرة بذلك الفعل وقد يوجد منه شئ شديد الحلاوة أحلى من التين لكنه لا ينفك فى أواخر مضغه من طعم خشبية ما وشجرته كبيرة كشجرة الجوز العاتية ويخرج من ثمره وغصنته اذا فصدت لبن أبيض اذا طلى على ثوب أو غيره صبغه أحمر وخشبه تعمر به المساكن ويتخذ منه الابواب وغيرها من الالات الجافية وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس وقلما يتأكل هذا مع انه خشب خفيف قليل اللدونة ويتخذ من ثمرته خل حاذق ونبيذ حاذ قال جالينوس الجميز بارد رطب فيما بين التوت والتين وهو ردى للمعدة ولبن شجرته له قوة ملينة تلصق الجراح وتفش الاورام ويلطخ على لسع الهوام ويحلل جساة الطحال وأوجاع المعدة ضمادا ويتخذ منه شراب للسعال المتقادم ونوازل الصدر والرية وعمله بان يطبخ فى الماء حتى تخرج فيه قوته ويطبخ ذلك الماء مع السكر حتى ينعقد ويرفع وقال أبو حنيفة ومن أجناس التين تين الجميز وهو تين حلو رطب له معاليق طوال وزبيب وضرب آخر من الجميز حمله كالتين فى الخلقة وورقه أصغر من ورق التين وتينه أصفر صغار وأسود ويكون بالغور ويسمى التين الذكر والاصفر منه حلو والاسود يدمى الفم وليس لتينه علاقة بل لاصق بالعود

ومن ذلك البلسان فانه لا يوجد اليوم الا بمصر بعين شمس فى موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك وعليها قشران الاعلى أحمر خفيف والاسفل اخضر ثخين واذا مضغ ظهر فى الفم منه دهنية ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السذاب ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يقطع القشر الاعلى ويشق الاسفل شقا لا ينفذ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شئ فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه باصبعه مسحا الى قرن فاذا امتلأ صبه فى قنانى زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه ويتقطع لثاه وكلما كثر الندى

في الجوكان لثاه اكثر وأغزر وفي الجدب وقلة الندى يكون الثاأنزر ومقدار ماخرج
منه في سنة ست وتسعين وخمس مائة وهي عام جدب نيف وعشرون رطلا ثم تؤخذ
القناني فتدفن الى القيظ وحمارة الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد
كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية واثفال أرضية فيقطف الدهن
ثم يعاد الى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ
ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه الى خزانة الملك
ومقدار الدهن الخالص من الثا بالتر ويبقى نحو عشر الجملة وقال لى بعض أرباب الخبرة
ان الذي يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلا ورأيت جالينوس يقول ان أجود دهن
البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر ونحن فلا نجد اليوم منه
بفلسطين شيئا البتة وقال نيقولاوس في كتاب النبات ومن النبات ماله رائحة طيبة في
بعض أجزائه ومنه ما رائحته الطيبة في جميع أجزائه كالبلسان الذي يكون في الشام
بقرب بحر الزفت والبير التي يسقى منها تسمى بير البلسم وماؤها عذب وقال ابن سمجون
انما يوجد في زماننا هذا بمصر فقط ويستخرج دهنه عند طلوع كلب الجبار وهو الشعرى
وذلك في شباط ومقدار ما يخرج ما بين خمسين رطلا الى ستين ويباع في مكانه بضعفه
فضة وكأن هذا الحال قد كانت في زمن ابن سمجون وحكى عن الرازى ان بدله دهن
الفجل وهذا بعيد والبلسان الدهنى لا يثمر وانما تؤخذ منه فسوخ فتغرس في شباط
فتعلق وتنمى وانما الثمر للذكر البرى ولا دهن له ويكون بنجد وتهامة وبرارى العرب
وسواحل اليمن وبأرض فارس ويسمى البشام ويربى قشره قبل استخراج دهنه فيكون
نافعا من جميع السموم وأما خواصه ومنافعه فالاليق بها غير هذا الكتاب

ومن ذلك القلقاس وهو أصول بقدر الخيار ومنه صغار كالاصابع يضرب الى حمرة
خفيفة يقشر ثم يشقق على مثل الشلجم وهو كثيف مكتنز يشابه الموز الاخضر الفج في
طعمه وفيه قبض يسير مع حرافة قوية وهذا دليل على حرارته ويبسه فاذا سلق زالت
حرافته جملة وحدث له مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مغرية كانت فيه بالقوة الا ان
حرافته كانت تخفيها وتسترها ولذلك صار غذاؤه غليظا بطئ الهضم ثقيلا في المعدة الا انه
لما فيه من القبض والعفوصة صار مقويا للمعدة حابسا للبطن اذا لم يكثر منه ولما فيه من

المزوجة والتغرية صار نافعامن سحج المعا وقشره أقوى على حبس البطن من جرمه لان قبضه أشد و يطبخ في السماقية وغيرها فيعود في المرقة لزوجة يعافهامن لا يعتادها ولكن اذا سلق وصبت سلاقته ثم قلي بالدهن حتى يتورد فلا بأس به والغالب على مزاجه الحرارة والرطوبة ويظهر من حاله انه مركب من جوهرين جوهر حار حريف يذهب بالطبخ وجوهر أرضي مائي ينمى بالطبخ وذلك كما في البصل والثوم وما كان كذلك فهو بيادوائي ومطبوخا غذائي وقد رأيته بدمشق لكن قليلا ورأيته اذا يبس يرجع خشبيا كالقسط سواء وأما ورقه فورق مستدير واسع على شكل خف البعير سواء لكنه أكبر منه و يكون قطر الورقة ما بين شبر الى شبرين ولكل ورقة قضيب مفرد في غلظ الاصبع وطول شبرين أو أزيد ونبات كل قضيب من الاصل الذي في الارض اذ ليس لهذا النبات ساق ولا ثمر أيضا وورق القلقاس شديد الخضرة رقيق البشرة شبيه بورق الموز في خضرته ونعمته ورونقه ونضارته وقال ديوسقوريدس ان لهذا النبات زهرا على لون الورد فاذا عقد عقد شيئا شبيها بالجراب كانه نفاخة الماء وفيه باقلي صغير أصغر من الباقلي اليوناني يعلو موضعه المواضع التي ليس فيها باقلي فمن أراد أن يزرعه فانما يأخذ ذلك الباقلي و يصيره في كتل طين و يلقيها في الماء فينبت وزعم انه يوكل طريا ويابسا وانه يعمل منه دقيق يشرب كالسويق و يعمل منه حسو فيقوى المعدة وينفع من الاسهال المرئي وسحوج الامعاء وان الشئ الاخضر الذي في وسطه المرالطعم اذا سحق وخلط بدهن وقطر في الاذن سكن وجعها وقال الاسرائيلي اما نحن فما شاهدنا له زهرا قال ورأيت أصل هذا النبات اذا خزن في المنازل وجاء وقت نباته تفرع من الباقلي اللاصق به فروع وأنبت من غيران يظهر له زهر ولا ثمر لكن لون الباقلاء نفسها كلون زهر الورد لانها حين تنزرو وتأخذ في النبات يخرج ما يبرز منها حسن البياض يعلوه تورد يسير قال وما وجدنا له جفافا يمكن معه ان يكون منه سويق ولا رأيناه السنة كلها الا رطبا مثل بصل النرجس و بصل الزعفران ونحوه قال ولم نر في وسطه هذا الاخضر الذي ذكره ديوسقوريدس ولا وجدناه السنة كلها الا كالموز الاخضر أقول كلا بل الحق ما قاله ديوسقوريدس وانه يجف حتى يقبل السحق و يمكن ان يتخذ منه السويق وهذا رأيناه عيانا وانه اذا جف لا فرق بينه و بين

الزنجبيل فى المنظر سوى ان القلقاس أكبر وتجد فى طعمه حدة ولذعا وأقول عن حدس صناعى مبدؤه المشاهدة والسماع ان القلقاس زنجبيل مصرى اكسبته الارض رطوبة فقلت حرارته وحدته كما ان الزنجبيل الزنجى والهندى أقوى واحد من اليمنى وأهل اليمن يطبخون به كما يطبخ المصريون بالقلقاس لكن لا يستكثر منه جدا ولقد سألت جماعة من التجار وأرباب المعرفة عن منبته باليمن وشكله فكلهم زعم انه كالقلقاس غير ان القلقاس أكبر وكذلك ورقه أكبر من ورق الزنجبيل وقد شاهدته اذا يبس لا فرق بينه وبين الزنجبيل فى الصورة مع حدة ولذع يسير وقال لى آخر ان نبات الزنجبيل يشبه نبات البصل مع ان القلقاس يكون فى تلك البلاد وكانه بستانى وقال على بن رضوان القلقاس أسرع الاغذية استحالة الى السوداء وقال غيره من أطباء مصر ان القلقاس يزيد فى الباه وفى كل نظر لا يليق بهذا الكتاب

ومن ذلك الموز وهو كثير باليمن والهند ورأيته بالغور وبدمشق مجلوبا وكونه من فراخ تظهر من أصل شجرته كما تظهر الفسلان من النخلة وتسمى الثمرة الام فاذا أخذت ثمرتها قطعت هى أيضا وخلفها أكبر بناتها وترتفع قامة الى قامتين وكانها نخلة لطيفة وزعموا ان شجر الموز فى الاصل مركب من قلقاس ونوى النخل تجعل النواة فى جوف القلقاسة وتغرس وهذا القول وان كان سادجا من دليل يشهد له فالحس يسوغه وذلك انك تجد لشجرته سعفا كسعف النخل سواء الا انك ينبغى ان تتخيل الخوص اتصل بعضه ببعض حتى صار كأنه ثوب حرير أخضر قد نشر أو راية خضراء ترف ريا وطراوة وكان الرطوبة اكتسبها من القلقاس والشكل اكتسبه من النخل وأنت تعلم ان تشقق سعف النخل الى الخوص انما كان من قبل اليبس الغالب على مزاج النخل ولكثرة رطوبة الموز بقى سعفه متصل الخوص ولم يتشقق فعلى هذا يكون القلقاس له بمنزلة المادة والنخل بمنزلة الصورة وأنت اذا تأملت خشب الموز وورقه بعد يبسه ألفيت فيه تلك الشظايا والخيوط التى تجدها فى جذع النخل وسعفه الا انك تجدها مشوبة برطوبة قد ألحمت بينها وملأت فرجها وان كان القلقاس لا ينفك من ذلك أيضا ويتبينه آكله مقلوا وأما الثمر فانك تراه اعذاقا كأعذاق النخل قد تحمل شجرته خمسمائة موزة فصاعدا ويكون فى منتهى العذق موزة تسمى الام ليس فيها لحم ولا تؤكل واذا شققت

وجدت

وبحدث مؤلفة من قشور كالبصل كل قشرين منها متقابلان يحتوى كل واحد منهما على نصفها طولا وتحت كل قشر عند القاعدة زهر أبيض بقدر الفستق أو كزهر النارنج عدده أحد عشر فى صفين لا ينقص عن هذا العدد ولا يزيد الا واحدا نادرا فهذا القشر بمنزلة كفرى الطلع والزهر بمنزلة الطلع نفسه وتنشق هذه القشور من تلقاء أنفسها على التدريج الاعلى فالاعلى فيظهر ذلك الزهر أبيض بمنزلة البلح وفيه رطوبة حلوة فيتساقط وتعقد عنه الموزة صغيرة فاذا أخذت فى النمو قليلا انشق قشر آخر على الرسم ولا يزال كذلك حتى ينتهى العذق وتجد قشر الموزة كقشر الرطبة الا انه غليظ جدا بما اكتسبه من مادة القلقاس ولحمها حلو فيه تفاهة كانه رطب مع خبز فالحلاوة له من الرطب والتفاهة من القلقاس واما شكلها ففى شكل الرطبة الا انها بقدر الخيارة الكبيرة تميل الى الصفرة والبياض فالصفرة من الرطب والبياض من القلقاس وحين ما يقطع يكون شديد الخضرة جدا لا يصلح للاكل فاذا دفن أياما اصفر وصلح للاكل ثم انك تجده شحمة واحدة ليس فيها نوى ولا ما يرمى سوى القشر فقط بل تراه كانه قطعة خبيص ناعم المضغ يسترط بسهولة واذا أنت تأملته فى ضياء القبت فى وسطه حبا كثيرا أصغر من الخردل يضرب الى السواد والشقرة شبيه بحب التين لكنه فى غاية اللين فهذا كانه رسم نوى الرطب الا انه لزيادة رطوبته لان وتفرق واختلط باللحم وانساغ معه فى الاكل وله رائحة عطرة لا بأس بها فيها خمرة ما والجشاء العارض لآكله بعد أخذه فى الهضم طيب الرائحة وهو حار رطب ورطوبته أزيد من حرارته وكانه حار فى الاولى رطب فى الثانية يزيد فى الباه ويدر البول ويحدث نفخا ولا يبعد فى طبعه هذا عن الرطب الا بكثرة رطوبته التى اكتسبها من القلقاس فهذا ان كان من تركيب الصناعة فقد صدق الخبر الخبر وان كان من تركيب الطبيعة فان لها أيضا تركيبات عجيبة متقنة من أصناف الحيوان والنبات فتكون الموز من جملتها وقال أبو حنيفه الموز معادنه عمان وتنبت الموزة نبات البردية لها عنقرة غليظة وورقة طويلة عريضة نحو ثلاث أذرع فى ذراعين ليست بمخرطة على نبات السعف لكن شبه المربعة وترتفع الموزة قامة باسطة ولا تزال فراخها تنبت حولها واحدة أصغر من الاخرى فاذا أجرت وذلك ادراك موزها قطعت الام حينئذ من أصلها وتؤخذ قنوها ويطلع أكبر فراخها فيصير هو الام

وتبقى البواقى فراخا لها ولا تزال على هذا ابدا الدهر ولذلك قال أشعب لابنه فيما
روى عنه الاصمعى يابنى لم لا تكون مثلى فقال أنا مثل الموز لا تصلح حتى تموت أمها
ومن نبات الموز الى أثمارها شهران وبين اطلاعها الى اجرائها أربعون يوما والموز موجود
فى أوطانه السنة كلها ويكون فى القنو من أقنائها مابين ثلاثين موزة الى خمس مائة موزة
ورأيت عند بعض تجار الهند حصرا حسنة لطيفة موشاة ذات وجهين ألوانها أحسن
الالوان وأصباغها زهر خالصة كانها ألوان الحرير عرض الحصير منها نحو ذراعين ونصف
وهو أسلة واحدة ليس فيه وصل فجعلت أعجب من طول الاسل الذى يعمل منه هذا الحصر
فذكر لى انه ليس به وانما هو متخذ من ورق الموز الهندى بأن يؤخذ العسيب فيشقق
ويجفف ثم يصبغ وينسج منه هذه الحصر ويباع الحصير منها فى المعبر بدينارين وفيها
ما يباع بدرهمين وأرانى من كلا الصنفين

وأما المحمضات فيوجد بأرض مصر منها أصناف كثيرة لم أرها بالعراق من ذلك اترج
كبار يعز وجود مثله ببغداد ومن ذلك اترج حلو ليس فيه حامض ومن ذلك الليمون
المركب وهو أصناف أيضا ويوجد فيه ما هو بقدر البطيخة ومن ذلك الليمون المختم
وهو أحمر شديد الحمرة اقنا حمرة من النارنج شديد الاستدارة مفلطح من رأسه وأسفله
مفضوخ فيهما بختمين

ومن ذلك ليمون البلسم وهو فى قدر الابهام وكالبيضة المطاولة وفيه ما هو مخروط صحيح
يبتدئ من قاعدة وينتهى الى نقطة وأما لونه وريحه وشحمه وحماضه فلا يغادر من
الاترج شيئا

وقد يوجد اترج فى جوفه اترج بقشر أصفر أيضا وخبرنى صادق انه وجد فى جوف
اترجة سبع اترجات صغار كل واحدة يحيط بها قشر تام والذى رأيته أنا اترجة فى جوفها
اترجة ليست تامة وقد رأيت منه شيئا بالغور وهذا الاترج المداخل انما يكون فى ذى
الحماض ثم ان هذه الانواع يركب بعضها على بعض فيتولد منها أصناف كثيرة جدا
ومن ذلك صنف من التفاح يوجد بالاسكندرية ببستان واحد يسمى بستان القطعة
وهو صغار جدا قانى الحمرة وأما رائحته فتفوق الوصف وتعلو على المسك وهو قليل جدا
وأما القرط فيسمى بالعراق الرطبة وبالشام الفصة وبالفارسية اسفست

وأما النخل فكثير لكن اذا قيست ثمرته بثمرة نخل العراق وجدت كأنها قد طبخت طبخة خرج بها معظم حلاوتها وبقيت ناقصة القوة ومايسميه أهل العراق القسب يسميه أهل مصر التمر وأما التمر بالعراق فيسمونه العجوة وقلما تجد عندهم ما يشابه تمر العراق الا نادرا ويكون ذلك نخيلا معدودة تهدى تحفة

وأما الماش وهو المج فلا يزرع بمصر أصلا وانما يوجد عند العطارين مجلوبا من الشام ويباع بالاوقي للمرضى وأما الذرة والدخن فلا يعرفان بمصر اللهم الا بالصعيد الاعلى وخاصة الدخن

ومما يختص به مصر الافيون وهو يجتنى من الخشخاش الاسود بالصعيد وكثيرا ما يغشه جناته وربما غشوه بالعذرة وعلامة الخالص منه ان يذوب في الشمس ويتقد في السراج بلا ظلمة واذا طفي تكون رائحته قوية والمغشوش يسوس سريعا وارسطو ينهى عن خلطه بدواء العين والاذن لانه يعمي ويصم

ومن ذلك الاقاقيا وهو عصارة ورق شجر القرظ وثمره يستخرج ماؤه بالدق والعصر ويجعل في أوان مرحرحة تلقاء الشمس حتى يغلظ ثم يقرص هذا هو الخالص الخاص وأما العام الذي يجلب الى البلاد فانه يؤخذ القرظ فيطحن ويعجن بماء الصمغ ثم يقرص ويختم ويجفف وشجرته هي السنط وتسمى الشوكة المصرية وورقها هو القرظ بالحقيقة ويدبغ به الجلود وعصارة القرظ التي تتخذ منها الاقاقيا تسمى رب القرظ ونساء مصر يشربن عصارته ونقيعه للاسهال والسنط شجر عظام جدا له شوك كثير حديد صلب أبيض وله ثمر يسمى خروب القرظ مدور مسطوح مشاكل لحب الترمس الا انه متصل كقرون اللوبيا وفي داخله حب صغار واذا اتخذ الاقاقيا من القرظ قبل كمال نضجه كان أكثر بياضا وأقوى على حبس الطبيعة واذا اتخذ مما استحكم نضجه لم يقو على حبس البطن وعلامته ان يكون شديد السواد مشرق اللون وقال الدينوري القرظ شجر عظام كشجر الجوز وخشبه صلب كالحديد واذا قدم اسود كالابنوس وورقه يشبه ورق التفاح وله حبلة مثل قرون اللوبيا داخلها حب يوضع في الموازين ويدبغ بورقه وثمره ومنابته القيعان والجبال وحبلة القرظ أصغر من علف الطلح واذا رعته الابل احمرت أفواهها وأوبارها حتى ابعارها فتحسبها مصفرا لدجع وتسمن عليه وما كان من القرظ

بأرض مصر فهو السنط وهو ذكي الوقود قليل الرماد وله برمة صفراء ليس لها رائحة زكية كبرم العراق

ومن ذلك الفقوص وهو قثاء صغار لا يكبر ولا يعدو أطوله القثر وأكثره في طول الاصبع وهو أنعم من القثاء وأحلى ولا شك انه صنف منه وكانه الضغابيس فأما القثد فهو الخيار

ويوجد بمصر بطيخ يسمى العبدلي والعبدلاوي قيل انه نسب الى عبد الله بن طاهر والي مصر عن المأمون وأما المزارعون فيسمونه البطيخ الدميري منسوب الى دميرة قرية بمصر وله أعناق ملتوية وقشره خفيف وطعمه مسيخ قلما يوجد فيه حلو ويندر فيه ما وزنه ثلاثون رطلا وأكثر والغالب عليه ما بين رطل الى عشرة أرطال وأهل مصر يستطيبونه على البطيخ المولد المسمى عندهم بالخراساني والصيني ويزعمون انه نافع ويأكلونه بالسكر وطعمه أشبه شئ بالصنف المسمى بالعراق الشلنق لكنه الذ منه وأنعم وشكله شكل يقطين العراق الا ان لونه حسن الصفرة جدا وفي ملمسه حراشة وتخشيش وصغاره قبل أن تبلغ تكون كاون اليقطين وشكله وكطعم القثاء لها بطون وأعناق وتباع بالفقوص وتسمى العجور وأخبرني مزارعه ان العادة جارية بأن ينقي حقله كل يوم فما يرى مزارعه ان يقطعه صغيرا أخضر قطعه وباعه بالعجور وما يرى ان يتركه حتى يكبر ويبلغ ويصفر كان منه البطيخ العبدلي وقلما تجد في بطيخ مصر ما هو صادق الحلاوة لكنه لا يوجد فيه مدود ولا فاسد بل الغالب عليه التفاهة المائية وجميع أصناف البطيخ بها يباع بالميزان سوى البطيخ الاخضر وأما البطيخ الاخضر فانه يسمى بالغرب الدلاع وبالشام البطيخ الزبش وبالعراق البطيخ الرقي ويسمى أيضا الفلسطيني والهندي وأما اليقطين الذي يقصره الجمهور على الدبا فيكون بمصر مستطيلا وفي شكل القثاء ويبلغ في طوله الى ذراعين وفي قطره الى شبر

وأما البقلي الاخضر المسمى عندهم بالفول فانه يتواصل نحو ستة أشهر وكذلك الورد والياسمين يدوم جميع السنة لا تزال شجرته مزهرة ومنه أبيض وأصفر والابيض أكثر وأعطر ومنه يتخذ دهن الزنبق بدمياط خاصة

وكذلك الليمون وانما يقل ويكثر فقط والبنفسج بمصر عطر جدا لكن لا يحسنون اتخاذ

دهنه

دهنه ولا بجونه والسفرجل بمصر ردى جدا صغير عفص غال وأما تفاحها فلا بأس به
وان كان رديئا وأما رمانها ففى غاية الجودة الا انه ليس بصادق الحلاوة
وأما القراسيا فلا يوجد بمصر بل بالشام و بلاد الروم وغيرهما وانما بمصر صنف من
الاجاص صغار حامض يسمونه القراسيا ومثل هذا الصنف بدمشق يسمونه خوخ الدب
لان الاجاص بالشام يسمى خوخا والخوخ دراقنا والكمثرى اجاصا
ومما يكثر بمصر شجر خيار شنبر وهو شجر عظام شبيه بشجر الخروب الشامى وزهره كبير
أصفر ناضر ذو رواء و بهجة فاذا انعقد تدلى ثمره كالمقارع الخضر و بها شجر اللوز والسدر
بها كثير وثمره النبق حلو جدا والنيل يكثر بها ولكنه دون الهندى

(الفصل الثالث)

(فيما تختص به من الحيوان)

من ذلك حضانة الفراريج بالزبل فانه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما
لم يعرفوه أيضا وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجرفيها و يكتسب منها وتجد فى كل
بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك و يسمى الموضع معمل الفروج وهذا المعمل ساحة
كبيرة يتخذ فيها من البيوت التى يأتى ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا فى كل بيت
ألف بيضة و يسمى بيت الترقيد
وصفته ان يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة و يجعل له
باب فى عرضه سعته شبران وعقد فى مثله وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر
ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساس وهو مشاقة
الكتان وحطبه ومن فوق ذلك الطين ثم يرصص بالطوب و يطين سائر البيت ظاهره
باطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار و ينبغى ان تتخذ فى وسط السقف شباكا سعته
شبر فى شبر فهذا السقف يحكى صدر الدجاجة ثم تتخذ حوضين من الطين مخمر بساس
طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة أصبع وحيطانه نحو أربع
أصابع و يكون هذا الحوض لوحا واحدا تبسطه على أرض معتدلة وهذا الحوض
يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرفى السقف أحدهما على وجه
الباب والآخر قبالته على الطرف الآخر تركيبا محكما وأخذت وصولهما بالطين أخذا

متقناو ينبغي ان يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث تماسانه وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن وتمهد ويفرش فوقه نخ خب أو ديس يعني حصيرا بردياعلى مقداره سواء ثم يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه ومقدار مايسع هذا البيت المفروض ألفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد

صفة الحضان تبتدئ وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساس والشباك أيضا بساس وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت متنفس للبخار وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وذلك ثلاث ويبات وتقد فيه نارسراج من جميع جهاته وتمهله ريثما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك وتعتبر حرارته وهذا الفعل يسمى الذواق فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيض بمنقارها وتفقدها اياه بعينها وهذا يسمى السماع الاول فاذا صار الزبل رمادا أزلته وتركته بلا نار الى نصف النهار ان كان ترقيده بكرة وان كان ترقيده من أول الليل حرسته الى ان تحمى وتسمع النار كالسابقة المتقدمة ثم تخلي الطاجنين من النار الى بكرة ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفا ومد الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر وابابك وان تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل فاذا كان وقت العشاء وصار الزبل رمادا ونزل الدفء الى البيض أسفل البيت فغير الرماد من الطواجن بزبل جديد مثل الاول وأنت كل وقت تلمس البيض وتذوقه بعينك فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين فاجعل مكان الثلاثة الاكيال لطاجن الباب كيلين وربعا وفي طاجن الصدر كيلين فقط ولا تزال تواصل تغير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته وذلك نصف عمر الحيوان ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتجعلها بينك وبين السراج فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيه فهي لاح بلابزر وتسمى الارملة

فاخرجها

ثم أخرجها فلا منفعة فيها ثم عدل البيض فى البيت بعد تنقيته وأخرج اللاح عنه وهذا
الفعل يسمى التلويح ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الاول مل‌ء كفك
من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شئ
فحينئذ يكمل الحيوان ويسعر وينفخ فاقطع اذا النار عنه فان وجدته زائد الحرارة
يحرق العين فافتح الطاقة التى على وجه الباب وخلها كذلك يومين ثم ذقه على عينك
فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض
الذى فى الصدر الى جهة الباب والبيض الذى فى جهة الباب ترده الى الصدر حتى
يحمى البارد الذى كان فى جهة الباب ويستريح الحار الذى فى الصدر بشم الهواء فيصير
فى طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد فيعتدل مزاجه وهذا الفعل يسمى
الحضانة كما يفعل الطير سواء وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل
الى تمام تسعة عشر يوما فان الحيوان ينطق فى البيض بقدرة الله تعالى وفى يوم العشرين
يطرح بعضه ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح وعند تمام اثنين وعشرين يوما
يخرج جميعه واجد الاوقات عاقبة لعمله أمشير وبرمهات وبرمودة وذلك فى شباط واذار
ونيسان لان البيض فى هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة صحيح المزاج والزمان
معتدل صالح للنشأ والكون وينبغى ان يكون البيض طريا وفى هذه الاشهر يكثر
البيض أيضا

ومن ذلك الحمير والحمير بمصر فارهة جدا وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال
النفيسة ولعلها تسبقها وهى مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هو عال بحيث اذا ركب بسرج
اختلط مع البغلات بركبه رؤساء اليهود والنصارى يبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا
الى أربعين

وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى
البقر الخيسية وهى ذوات قرون كأنها القسى غزيرات اللبن

وأما خيلها فعتاق سابقة ومنها ما يبلغ ثمنه ألف دينار الى اربعة آلاف وهم ينزون
الخيل على الحمير والحمير على الخيل فتأتى البغلة وأمهاتان ولكن هذه البغال لا تكون
عظيمة الخلق كالتى أمهاتها حجورة لان الام هى التى تعطى المادة

ومن ذلك التماسيح والتماسيح كثيرة فى النيل وخاصة فى الصعيد الاعلى وفى الجنادل فانها تكون فى الماء و بين صخور الجنادل كالدود كثرة وتكون كبارا وصغارا وتنتهى فى الكبر الى نيف وعشرين ذراعا طولا وتوجد فى سطح جسده مما يلى بطنه سلعة كالبيضة تحتوى على رطوبة دموية وهى كنافجة المسك فى الصورة والطيب وخبر فى الثقة انه يندر فيها ما يكون فى علو المسك لا ينقص عنه شيأ والتمساح يبيض بيضا شبيها ببيض الدجاج ورأيت فى كتاب منسوب الى ارسطو ما هذه صورته قال التمساح كبده تهيج الجماع وكليتاه وشحمه فى ذلك أبلغ ولا يعمل فى جلده الحديد ومن فقار رقبته الى ذنبه عظم واحد ولهذا اذا انقلب على ظهره لم يقدر ان يرجع قال و يبيض بيضا طويلا كالاوز و يدفنه فى الرمل فاذا أخرج كان كالحراذين فى جسمها وخلقتها ثم يعظم حتى يكون عشر أذرع وأزيد و يبيض ستين بيضة لان خلقته تجرى على ستين سنا وستين عرقا واذا سفد امنى ستين مرة وقد يعيش ستين سنة

ومن ذلك الدلفين ويوجد فى النيل وخاصة قرب تنيس ودمياط

ومن ذلك الاسقنقور و يكون بالصعيد وباسوان كثيرا ويكون من نتاج التمساح فى البر وهو صنف من الورل بل هو ورل الا انه قصير الذنب والورل والتمساح والحرذون والاسقنقور وسميكة صيدا لها كلها شكل واحد وانما تختلف بالصغر والكبر والتمساح أعظمها وسميكة صيدا أصغرها تكون بقدر الاصبع وتصلح لما يصلح له الاسقنقور من تسخين الاعضاء والانعاظ وكأن التمساح ورل بحرى والورل تمساح برى والجميع يبيض بيضا والسقنقور يكون بشطوط النيل ومعيشته فى البحر السمك الصغار وفى البر القطا ونحوه و يسترط غذاءه استراطا ويوجد لذكورته خصيان كخصى الديكة وفى مقدارهما ومواضعهما وأنثاه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها فى الرمل فيكمل كونها بحرارة الشمس فعلى هذا انما هو نوع برأسه وقال ديسقوريدس انه يكون بنواحى القلزم و بمواضع من بلاد الهند و بلاد الحبشة و يفارق الورل بأواه فان الورل جبلى والسقنقور برى مائى لانه يدخل فى ماء النيل ثم ان ظهر الورل خشن صلب وظهر السقنقور لين ناعم ولون الورل أصفر أغبر ولون السقنقور مدبج بصفرة وسواد والمختار من الاسقنقور انما هو الذكر دون الانثى و يصاد فى الربيع لانه وقت هيجانه للسفاد فاذا

أخذ

أعنقه ثم في مكانه وقطعت أطرافه ولا يستقصي قطع ذنبه ويشق جوفه ويخرج حشوته
الا كشيته وكلاه ثم يحشى ملحا ويخاط ويعلق في الظل حتى يجف ويرفع ويسقي من كلاه
ومتنه وشحمه وسرته من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بماء العسل أو بمطبوخ أو بصفرة بيض
نيمرشت وحده أو مع بزر جرجير وخصى ديوك مجفف مدقوق وقد يفعل ملحه ذلك اذا خلط
بالادوية الباثية وقد يركب مع غيره من الادوية الا ان استعماله مفردا أقوى له

ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد بأسافل الارض وخاصة ببحر دمياط وهو حيوان عظيم
الصورة هائل المنظر شديد البأس يتتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها
وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن وفي صوته صهلة تشبه صهيل
الفرس بل البغل وهو عظيم الهامة هريت الاشداق حديد الانياب عريض الكلكل
منتفخ الجوف قصير الارجل شديد الوثب قوي الدفع مهيب الصورة مخوف الغائلة
وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة انها خنزير
كبير وان أعضاءها الباطنة والظاهرة لا تغادر من صورة الخنزير شيئا الا في عظم الخلقة
ورأيت في كتاب نيطواليس في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته قال خنزيرة الماء
تكون في بحر مصر وهي تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه
خف الجمل قال وشحم متنها اذا أذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تجوز
المقدار وكانت واحدة ببحر دمياط قد ضربت على المراكب تغرقها وصار المسافر في
تلك الجهة مغررا وضربت أخرى بجهة أخرى على الجواميس والبقر وبني آدم تقتلهم
وتفسد الحرث والنسل وأعمل الناس في قتلهما كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة
وحشد الرجال باصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيأ فاستدعى بنفر من المريس صنف
من السودان زعموا انهم يحسنون صيدها وأنها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق فتوجهوا
نحوهما فقتلوهما في أقرب وقت وباهون سعي واتوا بهما الى القاهرة فشاهدتهما
فوجدت جلدها أسود أجرد ثخينا جدا وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات
معتدلات وهي في غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات وكذلك رقبتها ورأسها وفي مقدم فيها
اثنا عشر نابا ستة من فوق وستة من أسفل المتطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسطة
أنقص بقليل وبعد الانياب أربعة صفوف من الاسنان على خطوط مستقيمة في طول

الفم فى كل صف عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان فى الاعلى وصفان فى الاسفل على مقابلتهما واذافغر فوها وسع شاة كبيرة وذنبها فى طول نصف ذراع زائد أصله غليظ وطرفه كالاصبع أجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل وأرجلها قصار وطولها نحو ذراع وثلث ولها شبيه بخف البعير الا انه مشقوق الاطراف باربعة أقسام وأرجلها فى غاية الغلظ وجملة جثتها كانها مركب مكبوب لعظم منظرها وبالجملة هى أطول وأغلظ من الفيل الا ان أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير ولكن فى غلظها أو أغلظ منها

ومن ذلك السمكة المعروفة بالرعاد لانه من أمسكها وهى حية ارتعد رعدة لا يمكنه معها ان يتماسك وهى رعدة بقوة وخدر شديد وثقل فى الاعضاء وثقل بحيث لا يقدر ان يملك نفسه ولا ان يمسك بيده شيأ أصلا ويترقى الخدر الى عضده وكتفه والى جنبه باسره حين ما يلمسها أيسر لمس فى أسرع وقت وخبر نى صيادها انها اذا وقعت فى الشبكة اعترى الصياد ذلك اذا بقى بينه وبينها مقدار شبر أو اكثر من غير ان يضع يده عليها وهى اذا ماتت بطلت هذه الخاصة منها وهى من السمك الذى لا تفليس له ولحمها قليل الشوك كثير الدسم ولها جلد ثخين فى ثخن الاصبع ينسلخ عنها بسهولة ولا يمكن أكله ويوجد فيها الصغير والكبير ما بين رطل الى عشرين رطلا وذكر من يكثر السباحة بنواحيها انها اذا نفخت بدن السابح خدر الموضع أين كان ساعة بحيث يكاد يسقط ويكثر باسافل الارض وبالاسكندرية

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة لانه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر الملح ولا يفى القول بنعتها لكثرة أصنافها واختلاف أشكالها وألوانها ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء وهى سمكة كالحية سواء طولها ما بين ذراع الى ثلاث أذرع

ومنها السرب وهى سمكة تصاد من بحر الاسكندرية تحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والاحدوثات المضحكة فيها مشهورة

ومن ذلك الترسة وتسمى لجاة وهى سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير الا ان جفنتها أعنى عظم ظهرها كالترس له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر ورأيتها بالاسكندرية يقطع لحمها ويباع كلحم البقر وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الالوان وتخرج من جوفها نحو أربع ماية بيضة كبيض الدجاج سواء

الا

الا أنه لين القشر واتخذت من بيضها الجحة فلما جمد صار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيها بألوان المينا ومن ذلك الدلينس وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالكيل

(الفصل الرابع)

(في اقتصاص ما شوهد من آثارها القديمة)

اما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في غيرها فاقتصر على أعجب ما شاهدته

فمن ذلك الاهرام وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط املس وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدي قراقوش بعض الامراء وكان خصيا روميا سامي الهمة وكان يتولى عمائر مصر وهو الذي بنى السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطم وهو أيضا الذي بنى القلعة وانبط فيها البئرين الموجودتين اليوم وهما أيضا من العجائب وينزل اليهما بدرج نحو ثلثمائة درجة وأخذ حجارة هذه الاهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة وهذه القناطر من الابنية العجيبة أيضا ومن أعمال الجبارين وتكون نيفا وأربعين قنطرة وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمس مائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء ان يحتبس الماء فيروى الجيزة فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ومع ذلك فلم يرو ما رجاه ان يروى وقد بقي من هذه الاهرام المهدومة قلبها وحشوتها وهي ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر فلاجل ذلك تركت

وأما الاهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فثلاثة اهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط وبينها مسافات يسيرة وزوايا ها متقابلة نحو المشرق واثنان منها عظيمان جدا وفي قدر واحد وبهما أولع الشعراء وشبهوهما بنهدين

قد نهدا فى صدر الديار المصرية وهما متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الاحمر المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينك فاذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله وقد سلك فى بناية الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلا هى غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك ان وضعها على شكل مخروط يبتدئ من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها ومن عجيب وضعه انه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عندما تلقى السطح

ولنرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذكروا ان قاعدة كل منهما أربع مائة ذراع طولا فى مثلها عرضا وارتفاع عمودها أربع مائة ذراع وذلك كله بالذراع السودا ويتقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشر أذرع فى مثلها وأما الذى شاهدته من حالهما فان راميا كان معنا رمى سهما فى قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة وخبرنا ان فى القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشئ فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا فى الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأثوابه وكانت سابغة وكنت أمرته انه اذا استوى على سطحه قاسه بعمامته فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان احدى عشرة ذراعا بذراع اليد ورأيت بعض أرباب القياس قال ارتفاع عمودها ثلثمائة ذراع ونحو سبع عشرة ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات الاضلاع طول كل ضلع منها أربع مائة ذراع

وستون ذراعا وارى هـذا القياس خطأ ولو جعـل العمود أربعمائة ذراع لصح قيـاسه وان سـاعدت المقـادير توليت قيـاسه بنفسى وفى أحـد هـذين الهرمين مدخـل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة واسراب متنـافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلجه ويتوغله فان ناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيوغلون فى أعماقه ولابد ان ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه واما المسـلوك فيه المطروق كثيرا فزلاقة تفضى الى أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له فى أصل البناء وانمـا هو منقوب نقبا صودف اتفاقا وذكر ان المأمون هو الذى فتحه وجـل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى أعلاه فلمـا نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوا وانه مملوء بالخفافيش وأبوالهـا حتى يكاد يمنع السالك ويعظـم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمـام وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه وكانهـا جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء وولجته مرة أخرى مع جماعـة وبلغت نحو ثلثى المسافة فاغمى على من هول المطلع فرجعت برمق

وهذه الاهرام مبنية بحجـارة جافية يكون طول الحجر منهـا ما بين عشر أذرع الى عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضـه نحو ذلك والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهنـدام ليس فى الامكان أصح منه بحيث لا تجد بينهـما مدخل ابرة ولا خلل شعرة وبينهـما طين كانه الورقة لا أدرى ما صـنفه ولا ما هو وعلى تلك الحجـارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجـد بديار مصر من يزعـم انه سمع بمن يعـرفه وهـذه الـكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف لـكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة وقرأت فى بعض كتب الصـابئـة القديمـة ان أحد هـذين الهرمين هو قبر أغاذيمون والآخر قبر هرميس ويزعمون انهـما نبيان عظيمـان وان أغاذيمون أقدم وأعظم

وانه كان يحج اليهما ويهوى نحوهما من أقطار الارض وقد وسعنا القول فى المنقول فى الـكتاب الـكبير فمن أراد التوسعة فعليه به فان هذا الـكتاب مقصور على المشاهد

وكان الملك العزيز عثمـان بن يوسف لمـا استقل بعد أبيه سول له جهلة أصحابه ان يهدم هذه الاهرام فبدأ بالصغير الاحمر وهو ثالثة الاثافى

فاخرج اليه الحليبة والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وامراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلهم بخرابه فخيموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالاسافين والاخال وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاشطان فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الارض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الاسافين بعدما ينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى في ذيل الجبل وهي مسافة قريبة فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت عزائمهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية بل كانت غايتهم ان شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة ومع ذلك فان الرائي لحجارة الهدم يظن ان الهرم قد استؤصل فاذا عاين الهرم ظن انه لم يهدم منه شيء وانما جانب منه قد كشط بعضه وحين ما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت له لو بذل لكم ألف دينار على ان تردوا حجرا واحدا الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك فاقسم بالله تعالى انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه

وبازاء الاهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الاغوار متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكثرتها وسعتها وبعدها ويظهر من حالها انها مقاطع حجارة الاهرام وأما مقاطع حجارة الصوان الاحمر فيقال انها بالقلزم وباسوان

وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئا الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول

وعند هذه الاهرام باكثر من علوة صورة رأس وعنق بارزة من الارض في غاية العظم يسميه الناس أبا الهول

ويزعمون ان جثته مدفونة تحت الارض ويقتضي القياس ان يكون جثته بالنسبة الى راسه سبعين ذراعا فصاعدا وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراة

وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما وسألني بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت فقلت تناسب وجه أبي الهول فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة فان أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف لرجل كان مشوها به وكذلك لو كان أنف الرجل للصبي لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغي ان يكون على مقدار وهيئة بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة والعجب من مصوره كيف قدر ان يحفظ نظام التناسب في الاعضاء مع عظمها وانه ليس في اعمال الطبيعة ما يحاكيه ويقله

ومن ذلك الآثار التي بعين شمس وهي مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقا بها مهدوما ويظهر من أمرها انها قد كانت بيت عبادة وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم وقد كان بعض هذه الاصنام قائما على قواعد وبعضها قاعدا بنصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى اليوم وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير الانسان وغيره من الحيوان وكتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما ترى حجرا غفلا من كتابة أو نقش أو صورة وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون وصفة المسلة ان قاعدة مربعة طولها عشر أذرع في مثلها عرضا في نحوها سمكا قد وضعت على أساس ثابت في الارض ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ينيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهي الى نقطة وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وطول المدة واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها العظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم ان حولها من المسال شيئا كثيرا لا يحصى عدده هامة ادبرها على نصف تلك العظمى أو ثلثها وقلما تجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها

ورأيت بالاسكندرية مسلتين على سيف البحر في وسط العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين

وأما البرابي بالصعيد فالحكاية عن عظمها واتقان صنعتها وأحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر وهي من الشهرة بحيث تغني عن الاطالة في الصفة

ورأيت بالاسكندرية عمود السواري وهو عمود أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جدا شاهق الطول لا يبعد ان يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه يدل على انه يفتقر الى قوة في العلم برفع الاثقال وتمهر في الهندسة العملية وخبرني بعض الثقات انه قاس دوره فكان خمسا وسبعين شبرا بالشبر التام

ثم اني رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربع مائة عمود مكسرة انصافا واثلاثا حجرها من جنس حجر عمود السواري على الثلث منه أو الربع وزعم أهل الاسكندرية قاطبة انها كانت منتصبة حول عمود السواري وان بعض ولاة الاسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف بن أيوب فرأى هدم هذه السواري وتكسيرها والقاها بشاطئ البحر زعم ان ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة أو ان يمنع مراكب العدوان تسند اليه وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة

ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الاعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلم الذي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه

واما المنارة فحالها مشهور يغني عن وصفها وذكر ذوو العناية ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا

وقرأت

وقرأت بخط بعض المحصلين انه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنين وستين ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلثي ذراع وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعا وطول القاعدة العليا سبع أذرع ونصف ذراع وقاس أيضا المنارة فوجدها مائتي ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع واحدى وعشرون ذراعا والطبقة الثانية مثمنة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع

ومن ذلك الآثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بالجيزة فويق الفسطاط وهي منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر واياها عنى بقوله تعالى عن موسى عليه السلام (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) وبقوله تعالى (فخرج منها خائفا يترقب) لان مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجيزة قريبة من المدينة تسمى دموه وبها اليوم دير لليهود ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم في نحوه وقد كانت عامرة في زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن بخت نصر فانه أخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة وسبب اخرابه اياها ان ملكها عصم منه اليهود حين التجأوا الى مصر ولم يمكن منهم بخت نصر فقصده بخت نصر وأباد ديارهم ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستولى عليهم وعمر بها الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى ان جاء الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك بالفسطاط ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك الى اليوم وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا في الكتاب الكبير ولنرجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة

فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستيصال الامم اياها من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها والاتها وأفساد أبنيتها وتشويه صورها مضافا الى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ويحصر دون وصفه البليغ اللسن وكلما زدته تأملا زادك عجبا وكلما زدته نظرا زادك

طربا ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو أغرب ومهما استثرت منه علما دلك على
ان وراءه ما هو أعظم

فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الاخضر وهو حجر واحد تسع أذرع ارتفاعا فى ثمان طولا
فى سبع عرضا قد حفر فى وسطه بيت قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين
ذراعين والباقى فضاء البيت وجميعه ظاهرا وباطنا منقوش ومصور ومكتوب بالقلم
القديم وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلى مطلعها وصور كثير من الكواكب
والافلاك وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيآت فمن بين قائم
وماش وماد رجليه وصافهما ومستمر للخدمة وحامل آلات ومشير بها ينبئ ظاهر الامر انه
قصد بذلك محاكاة أمور جليلة واعمال شريفة وهيآت فاضلة واشارات الى أسرار
غامضة وانها لم تتخذ عبثا ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن وقد كان
هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى
طمعا فى المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله وثقل بعض على بعض
فتصدع صدوعا طفيفة يسيرة وهذا البيت قد كان فى هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية
جافية على أتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة وحجارة الهدم
متواصلة فى جميع أقطار هذا الخراب وقد بقى فى بعضها حيطان ماثلة بتلك الحجارة
الجافية وفى بعضها أساس وفى بعضها أطلال ورأيت عقد باب شاهقا اركانه حجران فقط
وأزجه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن
قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر فى ارتفاع اصبعين وفيه صداء النحاس وزنجرته فعلمت
ان ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات بينها بان يجعل بين الحجرين ثم يصب عليه
الرصاص وقد تتبعها الانذال المحدودون فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لاجلها
كثيرا من الحجارة حتى يصلوا اليها ولعمر الله لقد بذلوا الجهد فى استخلاصها وأبانوا عن
تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة

وأما الاصنام وكثرة عددها وعظم صورها فامر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير وأما
اتقان أشكالها وأحكام هيآتها والمحاكاة بها الامور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة
فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعا وكان مداه من جهة اليمين

الى

الى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف الى الامام على تلك النسبة وهو حجر واحد من الصوان الاحمر وعليه من الدهان الاحمر كانه لم يزده تقادم الايام الا جدة

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظمه النظام الطبيعي والتناسب الحقيقي وأنت تعلم ان كل واحد من الاعضاء الآلية والمتشابهة له في نفسه مقدار ما وله الى سائر الاعضاء نسبة ما بذلك المقدار و بتلك النسبة يحصل حسن الهيئة وملاحة الصورة فان اختل شيء من ذلك حدث من القبح بمقدار الخلل وقد أحكم في هذه الاصنام هذا النظام احكاما أي احكام فمن ذلك مقادير الاعضاء في نفسها ثم نسب بعضها الى بعض فانك ترى الصنم قد ابتدئ بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم تأخذ الصدر في ارتفاع الترايب الى الثندوتين فيرتفعان عما دونهما و يفرزان عن سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان الى حد الحلمة ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الماثلة ثم تحدر الى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزر القلب والى تجعيد الاضلاع والتوائها كما هو موجود في الحيوان الحقيقي ثم تنحدر الى مقاط الاضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يمينا وشمالا وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلي الاقراب ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها ثم الانحدار الى الثنة والحالبين وعروق الحالب والخروج منه الى عظمي الوركين وكذلك تحد انفصال الكتف واتصاله بالعضد ثم بالساعد وانفتال حبل الذراع والكوع والكرسوع وابرة المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير ذلك مما يطول شرحه وقد صور كف بعضها قابضا به على عمود قطره شبر كأنه كتاب وصورت الغضون والاسارير التي تحدث في جلدة الكف مما يلي الخنصر عندما يقبض الانسان كفه وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما في القوى البشرية ان تفعله وأتم ما في المواد الحجرية ان تقبله ولم يبق الا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الاذن وحتارها وتعاريجها على غاية التمثيل والتخييل

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جدا وقد حفظ فيهما النظام الطبيعي والتناسب الحيواني مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقي جدا جدا وقد تكسرا وردما بالتراب

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف مطاول الشكل ومقداره نصف الاجر الكسروى بالعراق كما ان طوب مصر اليوم نصف أجر العراق اليوم أيضا

واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم على الاوائل بان أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو انه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم وذلك ان الاذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للاعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض فان النصف الاسفل من الانسان أعظم من النصف الاعلى منه أعنى التنور بمقدار معلوم بخلاف سائر الحيوان والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربع وهكذا جميع عظامه الصغار والكبار والقصب والسناسن والسلاميات حافظة للنظام فى مقاديرها ونسب بعضها الى بعض وكذلك سائر الاعضاء الباطنة والظاهرة كانخفاض اليافوخ عن ذروة الرأس ونتوء عما دونه وامتداد الجبهة والجبينين وتطامن الصدغين ونتوء عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الانف ولين المارن وانفراج المنخرين وامتداد الوترة ودقة الشفتين واستدارة الحنك وانخراط الفكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا فى المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له يدل على ان القوم كان لهم حذاقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها وان جميع ما أدركوه وان جل فهو حقير تافه بالقياس الى الامر الحقيقى المطبوع وانما يستعظم ما عرفه الانسان منه بالقياس الى ضعف قوته وبالقياس الى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه كما يتعجب من النملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل اذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال (من العجب ان نستحسن علم احكام التصاوير وعمل الاصنام وافراغها ونتبين حكمته ولا نستحسن معرفة الاشياء المقومة بالطبيعة ولا سيما اذا قوينا على معرفة عللها ولذلك لا ينبغى لنا ان نكره النظر فى طباع الحيوان الحقير الذى ليس بكريم

ولا

ولا يثقل ذلك علينا كما يثقل على الصبيان ففي جميع الاشياء الطباعية شيء عجيب ولذلك ينبغي لنا ان نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم ان في جميعه شيئا طباعيا كريما الا انه لم يطبع شيء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبخت بل كل ما يكون من قبيل الطباع فانما يكون لشيء أعني لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة فتبارك الله أحسن الخالقين

وأما باطن الحيوان وتجويفاته ومافيها من العجائب التي يشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الاعضاء له فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيرا ولا يجد له على ذلك ظهيرا ويعلم مصداق قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا

وأقول ان التعجب من الامور الصناعية يضاهي التعجب من الامور الطباعية لان الامور الصناعية هي بوجه ما طباعية وذلك انها حادثة عن قوى طباعية وكما ان المهندس اذا حرك ثقلا عظيما استحق ان يتعجب منه فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلا تحرك تلك الصورة ثقلا ما كان ذلك المهندس أحرى ان يتعجب منه

والله خلقكم وما تعملون فتبارك من ملكوته سار في عالمي الغيب والشهادة وفي أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا يتمنهه حجاب يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ومن أشباح الموجودات بقدرته قائمة وبارادته متحركة وساكنة وبنفاذ أمره فيها فرحة وباقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ولتكثرها تشهد بوحدانيته وبتغيرها تقر بصمديته وان من شيء الا يسبح بحمده

ولنرجع الى حديثنا الاول فنقول هذه الاصنام مع كثرتها قد تركتها الايام الا الاقل منها جذاذا وغادرتها أرماما ولقد شاهدت كبيرا منها وقد نحت من صلابته رحا قطرها ذراعان ولم يظهر في صورته كبير تشويه ولا تغير بين ورأيت صنما وبين رجليه صنم متصل به صغير كأنه مولود بالقياس اليه وهو مع ذلك كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحة والجمال ما يشوق الناظر اليه ولا يمل من ملاحظته

واتخاذ الاصنام قد كان في ذلك الزمان شائعا في الارض عاما في الامم ولهذا قال تعالى في حق ابراهيم عليه السلام ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين أي

كان وحده فى زمنه موحدا فهو امة بنفسه لاعتزاله اياهم وانفراده برأى يخالف آراءهـم

ولما رأى بنو اسرائل تعظيم القبط هذه الاصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها وألفوا ذلك وأنسوا به لطول مقامهم بينهم ثم رأوا قوما من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطا وصابئة نزعوا الى الاصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة فى اتخاذ التصاوير فى بيعهم وهيا كل عباداتهم وبالغوا فى ذلك وتفننوا فيه وتراموا فى الجهالة والنوك حتى صوروا الههم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنن أوائلهم وان كان الاوائل يكبرون الاله ان يدخل تحت ادراك عقلى وحسى فضلا عن تصوير واغا سهل على النصارى ذلك واجرأهم عليه اعتقادهم الالهية لبشر وقد حققنا القول فى ذلك فى مقالاتنا عليهم

ومازالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها وان كانوا أعداء لاربابها وكانو يفعلون ذلك لمصالح

منها التبقى تاريخا يتنبه بها على الاحقاب ومنها انها تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الاثر ومنها انها مذكرة بالمصير ومنبهة على المآل ومنها انها تدل على شئ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه وأما فى زمننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا هملا وفوضت اليهم شؤونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرء منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسوّل له نفسه ويدعو اليه هواه فلما رأوا آثارا هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم وأجل الاشياء فى قلوبهم وهو الدينار والدرهم فهم كما قيل

وكل شئ رآه ظنه قدحا ❋ وان رأى ظل شخص ظنه الساقى

فهم يحسبون كل علم يلوح لهم انه علم على مطلب وكل شق مفطور فى جبل انه يفضى الى كنز وكل صنم عظيم انه حافظ للمال تحت قدميه وهو مهلك عليه فصاروا يعملون الحيلة

فى

فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه ويفسدون صور الاصنام افسادا من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف وينقبون الاحجار نقب من لا يتمارى انها صناديق مقفلة على ذخائر ويسربون فى فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها

وهذه الفطور منها مايدخل حبوا ومنها مايدخل زحفا ومنها مايدخل سحبا على الوجوه ومنها مضائق لا ينسحب فيها الا الضرب الضئيل وأكثر ذلك اغساه وفطور طبيعية فى الجبال

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك ومن كان فقيرا قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بايمان يحلفها له وعلوم يزعم انها استأثر بها دونه وعلامات يدعى انه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله وما أقبح بعد ذلك ما له

ومما يقوى اطماعهم ويديم اصرارهم انهم يجدون نواويس تحت الارض فسيحة الارجاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا با كفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع فى قط دقاق ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم ومن كان يتتبع هذه النواويس من الاعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فما وجد فيه تماسكا اتخذه ثيابا او باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين

ويوجد بعض موتاهم فى توابيت من خشب الجميز ثخين ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة امارخام واماصوان وبعضهم فى أزيار مملوءة عسلا وخبرنى الثقة انهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الاهرام صادفوا دنا مختوما ففضوه فاذا فيه عسل فأكلوا منه فعلق فى أصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبى صغير متماسك الاعضاء رطب البدن عليه شئ من الحلى والجوهر وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشا وربما وجد عنده شئ من الذهب والحلى والجوهر وربما وجد عنده آلته التى كان يزاول بها العمل فى حياته وخبرنى الثقة انه وجد عند ميت منهم آلة المزين مسنا وموسى وعند آخر آلة الحجام وعند آخر آلة الحائك ويظهر من حالهم انه قد كان

من سنتهم ان يدفنوا مع الرجل آلته وماله وسمعت ان طوائف من الحبشة هذه سنتهم ويتطيرون بمتاع الميت ان يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه مائتي أوقية من الذهب وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فاخذه ممتنعا عليهم

وقد كان من سنتهم والله أعلم ان يجعل مع الميت شيء من الذهب فخبرني بعض قضاة بوصير وهي مجاورة مدافنهم انهم نبشوا ثلاثة أقبر فوجدوا على كل ميت قشرا رقيقا من الذهب لا يكاد يجتمع وفي فيه سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاثة فكان وزنها تسعة مثاقيل والحكايات في ذلك أوسع من ان يحصرها هذا الكتاب

وأما ما يوجد في أجوافهم وأدمغتهم من الشيء الذي يسمونه موميا فكثير جدا يجلبه أهل الريف الى المدينة ويباع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلاثة أرؤس مملوءة منه بنصف درهم مصري

وأراني بائعه جوالقا مملوءا من ذلك وكان فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ورأيته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه ورأيت أيضا على قحف الرأس أثر ثوب الكفن وأثر النساجة قد انتقش فيه كما يرتسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب

وهذا الموميا هو أسود كالقفر ورأيته اذا اشتد عليه حر الصيف يجري ويلصق بما يدنو منه واذا طرح على الجمر غلى ودخن وشممت منه رائحة القفر أو الزفت والغالب انه زفت ومر

وأما الموميا بالحقيقي فشيء ينحدر من رؤس الجبال مع المياه ثم يجمد كالقار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط بقفر وقال جالينوس الموميا يخرج من العيون كالقار والنفط وقال غيره هو صنف من القار ويسمى حيض الجبال وهذا الذي يوجد في تجاويف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وان يستعمل بدله اذا تعذر

ومن أعجب ما يوجد في مدافنهم أصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات وقد كفن الواحد منها في كذا كذا ثوبا وهو محتاط عليه محتفظ به

وخبرني الثقة أنهم وجدوا بيتا تحت الارض محكما ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب

القنب وقد تمعطت فازالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها بجلا صحيحا قد أحكم تمعيطه ووجدني آخرانهم وجدوا صقرا فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوه لم تسقط منه ريشة وحكى لي مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه ويسمج ذكره

وحكى لي أيضا الامير الصادق انه كان بقوص فجاء اليه من يبحث عن المطالب فذكروا له أنهم انخسفت بهم هوة موهمة ان فيها دفينا فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا فوجدوا زيرا كبيرا موثق الرأس بالجص ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالاصابع مكفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صيرا وهو سمك صغار وقد صار كالهباء اذا نفخ طار فنقلوا الزير الى مدينة قوص بين يدي الوالي واجتمع عليه نحو مائة رجل فحلوا الجميع حتى أتوا على آخره وهو كله صير مكفن ليس فيه سوى ذلك

ورأيت أنا بعد ذلك في مدافنهم بوصير من العجائب مالا يفي به هذا الكتاب فمن ذلك اني وجدت في هذه المدافن مغائر تحت الارض مبنية باتقان وفيها رمم مكفنة في كل مغارة عدد لا يحصى ومن المغائر ماهو مملوء برمم الكلاب ومنها ماهو مملوء برمم البقر ومنها ما فيه رمم السنانير والجميع مكفن بخرق القنب ورأيت شيئا من عظام بني آدم وقد تمشق حتى صار كالليف الابيض لقدمه ومع ذلك فا كثر الرمم التي رأيتها صلبة متماسكة جدا يظهر عليها من الطراة أكثر من رمم الهالكين سنة سبع وتسعين وخمس مائة الآتي ذكرها آخر كتابنا هذا ولا سيما ما كان من الرمم القديمة قد انصبغ بالزفت أو القطران فانك تجدها في لون الحديد وصلابته ورزانته ورأيت من جماجم البقر ماشاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤس المعز والضأن وبين رؤس البقر والثيران ووجدت لحم البقر قد التصق بالاكفان حتى صار قطعة واحدة حمراء تضرب الى السواد ويخرج العظم من تحتها أبيض يققا وبعض العظام أحمر وبعضها اسود وكذلك في عظام الآدمي ولا شك ان الاكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يكفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغه فاحمر واسود ووجدت في عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون في جملتها مائة الف رأس كلب أو يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب فان جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور واخذ ما ينسج

لهم من الخشب والخرق وغيره واستقريت جميع المواضع الممكنة فلم أجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقي ذلك في نفسي فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى أخباري بانهم قد تقدمت فكرتهم في ذلك واستقراؤهم أياه فلم يجدوه وأكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوي الصلب ومنه ماصار في درجة الرماد وخبر في قضاة بوصير بعجائب منها انهم وجدوا ناووسا من حجر ففضوه فالفوا فيه ناووسا ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهي سام ابرص مكفنة محتاطا عليها معتنيا بها

ووجدنا عند بوصير أهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقي قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمي الجيزة

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابي وبغيرها

واعلم ان الاهرام لم أجد لها ذكرا في التوراة ولا في غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها وانما قال في اثنا قول له في السياسة كما كان من سنة المصريين البنا وللاسكندر الافروديسي تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض لشيء من أخبار القبط واما جالينوس فرأيته ذكر الاهرام في موضع واحد وجعله من هرم الشيخوخة وقال في كتاب شرح الاهوية والبلدان لبقراط فمن أراد ان يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة هذا معنى قوله وقال في كتاب عمل التشريح فمن أراد ان يشاهد كيفية تركيب العظام وهيأتها فينبغي له ان يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء

واعلم ان القبط بمصر نظير النبط بالعراق ومنف نظيرة بابل والروم والاقاصرة بمصر نظير الفرس والاكاسرة بالعراق والاسكندرية نظيرة المدائن والفسطاط نظير بغداد والجميع اليوم يعمه الاسلام وتشمله دعوة بني العباس

❊(الفصل الخامس فيما شوهد بها من غرائب الابنية والسفن)❊

واما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى انهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم افيح وغالب سكناهم في الاعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وقلما تجد منزلا الا وفيه باذاهنج وباذاهنجاتهم كبار واسعة للريح

عليها

عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يغرم على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمس مائة وان كانت باذاهنجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت والطوب الاحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق

ويحكمون قنوات المراحيض حتى انه تخرب الدار والقناة قائمة ويحفرون الكنف الى المعين فيعبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح

واذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية احضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك

وأما المسناة فيسمونها الزربية ولهم في بنائها اتقان حسن وصفته ان يحفر الاساس حتى تظهر النداوة ونزّ الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الارض الندية بعدما تمهد ويكون عرضه نحو ثلثي ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذي يجعل في قعر الابار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور فيأتي الغواصون وينزلون هذه البير ويحفرونها وكلما نبع الماء نزحوه مع الطين والرمل ويحفرون أيضا تحت ذلك الملبن فكلما انخلخل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته والبناء في اثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ولا يزال البناء يرفع والغواص تحته يحفر وهو بثقله يغوص حتى يستقر على ارض جلدة ويصل الى الحد الذي يعرفونه فحينئذ ينتقلون الى عمل آخر مثله على سمته وعلى بعد أربع اذرع منه أو نحوها ولا يزالون يفعلون ذلك في جميع طول الاساس المفروض ثم يبنون الاساس كالعادة بعد ردم هذه الابار فترجع أونادا راسية للبناء وعمدا تدعمه وتوثقه

وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد اتقن منها وضعا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا أما أولا فان أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين الى أربع روايا وأكثر من ذلك تصب فيه ميزابان نحاجان حار وبارد وقبل ذلك تصبان في حوض صغير جدا مرتفع

فاذا اختلطا فيه يجرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحو ربعه فوق الارض وسائره فى عمقها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه وداخل الحمام مقاصير بابواب وفى المسلخ أيضا مقاصير لارباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلخ بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الارض باصناف الرخام مجزع باختلاف الوانه وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج جاماته مختلفة الالوان صافية الاصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه لانه اذا بالغ بعض الرؤساء ان يتخذ دارا ويجاوبه وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه

وفى موقده حكمة عجيبة وذلك ان يتخذ بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل اليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص كقدور الهراس لكنها أكبر منها وتتصل هذه القدور وقرب أعاليها بجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البير الى فسقية عظيمة ثم منها الى القدر الاولى فيكون فيها باردا على حاله ثم يجرى منها الى الثانية فيسخن قليلا ثم الى الثالثة فيسخن أكثر من ذلك ثم الى الرابعة فيتناهى حره ثم يخرج من الرابعة الى مجارى الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بايسر كلفة وأهون سعى وأقصر زمان وهذا العمل حاك كانه فعل الطبيعة فى بطون الحيوان وطبخها الغذا فان الغذا ينتقل فى الامعاء وآلات الغذاء التى هى لكل حيوان وكلما صار الغذاء الى مصير حصل له صنف من الهضم ومقدار من النضج حتى يصل الى المعاء الاخير وقد تناهى

واعلم ان هذه القدور كل حين تحتاج الى تجديد لان النار تنقصها فتوجد القدر الاولى التى هى وعاء البارد قد نقصت أكثر من نقصان القدر التى هى وعاء الحار بمقدار بين ولذلك علة طبيعية ليس هذا موضعها

ويفرشون أرض الاتون التى هى مقر النار بنحو خمسين أردبا ملحا وهكذا يفعلون بارض الافران لان الملح من طبعه حفظ الحرارة

وأما سفنهم فكثيرة الاصناف والاشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيرى شكله شكل شبارة داخله الا انه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هندامًا وشكلا وقد سطح بالواح

بالواح من خشب ثخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين وبنى فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات وروازن بابواب الى البحر من سائر جهاته ثم تعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ثم يزوق باصناف الاصباغ ويذهب ويدهن باحسن دهان

وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالسا فى وسادته وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم فى قعر المركب والملاحون تحت السطح أيضا وفى باقى المركب يقذفون به لا يعلمون شيئا من أحوال الركاب ولا الركاب يشتغل خواطرهم بهم بل كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده واذا أراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن أصحابه دخل المخدع واذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض والملاحون بمصر يقذفون الى ورائهم فهم فى قذفهم يشبهون الحبالين فى مشيهم القهقرى ويشبهون فى تحريكهم السفن من يجذب ثقلا بين يديه ويمشى به الى خلفه وأما ملاحو العراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل نحو امامه ويدسر به فسفنهم تتوجه حيث الملاح متجه وأما سفن مصر فهى تتحرك الى ضد الجهة التى اليها الملاح متوجه وأما أى الحالتين أسهل والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعى وعلم تحريك الاثقال

❋(الفصل السادس فى غرائب أطعمتها)❋

فمن ذلك النيدة وهى بمنزلة الخبيص حمراء الى السواد وهى حلوة الى الغاية وتتخذ من القمح بان ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاه وقوته فى الماء ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق ويعقد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى نيدة البوش وقد يطبخ ذلك الماء وحده حتى ينعقد من غير دقيق وتسمى النيدة المعقودة وهى أغلى من الاولى وأعلى

ويختصون أيضا باستخراج دهن بزر الفجل والسلجم والخس ويستصبحون به ويعملون منه الصابون وصابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر وبه شبهت الصابونية واليه نسبت

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسواذج هي المعهودة أو قريبة من المعهودة وأما المحلات فغريبة وذلك انهم يتخذون الدجاج باصناف من الحلويات وسبيل ذلك ان تسلق الدجاج ثم ترمى في الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو بزر رجلة أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع وتسمى هذه الاطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية وست النوبة للتي تعقد ببزر الرجلة لسوادها ويتفننون في ذلك تفننا يحتاج الى شرح أكثر من هذا

وأما الحلويات المتخذة من السكر فاصناف كثيرة يؤدي استقصاؤها الى الخروج عن الغرض ويحوج الى وضع كتاب مفرد وقد يتخذ منها ما يصلح لمداواة الامراض ولارباب الحمية من المرضى والناقهين اذا تاقت أنفسهم الى الحلاوى فى ذلك خبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلية المتخذة بالزنجبيل وكاقراص العود واقراص الليمون والاقراص الممسكة وغير ذلك وكثيرا ما يستعملون الفستق في أطبختهم وحلواتهم عوض اللوز وهو مما يفتح سدد الكبد ويتخذون منه هريسة تسمى هريسة الفستق وهي لذيذة جدا معمنة وموادها لحم دجاج مسلوق منسرجزء وجلاب جزءان ومثل ثمن الجميع أو تسعه فستق مقشور مهروس وكيفية عملها ان يسمح اللحم المنسر بالشيرج ويجعل في الدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقى عليه الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته ان يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ويعجن مع خمسة أرطال ونصف شيرج كعجن خبز الخشكنان ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس قد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الاجواف بلحم مدقوق مقلو بالشيرج والفستق المهروس والافاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وخمسون فرخا بعضه مشوى محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء

الحصرم

المصرم أو بماء الليمون أو بنحو ذلك ثم يشو ربالسنبوسك والقماقم المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها وان شيت ان تزيده خروفا آخر تتخذه شرائح فلا بأس وكذا جبنا مقلوا فاذا نضذ ذلك وصار كالقبة نضح عليه ماورد قد ديف فيه مسك وعود ثم غطى بالقسم الثاني من العجين بعد ان يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منه نفس أصلا ثم يقرب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدى في النضج فحينئذ ترسل الصينية في التنور بعراها رويدا رويدا ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح باسفنجة ويرش عليه ماورد ومسك ويرفع للاكل وهذا الصنيع صلح ان يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى متصيداتهم النائية ومتنزهاتهم النازحة فانه وحده جملة فيها تفصيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك وأكثر أغذيتهم الصير والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتولد في الصحاري والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سماني الغيط وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب واسافل الارض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الاخضر وبدمياط يكثر اكل السمك ويطبخ به كل ما يطبخ به اللحم من الرز والسماق والمدققات وغير ذلك

(آخر المقالة الاولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين)



❊(المقالة الثانيـــة وهى ثلاثة فصول)❊

(الفصل الاول فى النيل وكيفية زياداته
واعطاء علل ذلك وقوانينه)

اعلم ان نيل مصر يبدو وقت نضوب مياه الارض وذلك فى شمس السرطان والاسد والسنبلة فيعلو على الارض ويقيم أياما فاذا نزل عنها حرثت وزرعت ثم يكثر الندى فى الليل جدا وبه يتغذى الزرع الى ان يستحصد ونهاية ماتدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانى عشرة ذراعا فان زاد على ذلك فانه يروى أمكنة مستعلية وكأنه نافلة وعلى جهة التبرع ونهاية مايزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته ان يزرع نحو مما يروى مما عادته ان يشرق ولنسم الثمانية عشرة نهاية الضرورى ولنسم العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها فابتداء الضرورى ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السلطان اذ عنده يستحق الخراج ويروى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار مايمان أهل البلاد سنتهم بجامع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالرى بما زاد على ست عشرة ذراعا الى ثمانى عشرة وهذا يغل مقدار مايمير أهل البلاد سنتين فصاعدا وأما مانقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ماهو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا

وحينئذ يقال ان البلاد قد شرقت واشتقاقها من قولهم شرقت الشمس اذا طلعت وظهرت وشرقت اللحم اذا نشرته ليجف ومنه قيل أيام التشريق لان لحوم الاضاحى تشرق فيها أى تبسط ومنه أيضا قولهم شرق بالماء وبالشراب لان الماء عند الاغتصاص وانسداد الحلق يظهر ويبرز ولا يلج ولما كانت الارض فى السنة التى لا يوفى نيلها بارزة لا يسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تغط ولم ينلها النيل ويجوز ان يكون التشريق من قولهم ريح شرقية لان الريح الشرقية والقبلية وهى الجنوب هما عندهم دليل نقص الماء وسببه والغربية والبحرية وهى الشمال هما عندهم دليل الزيادة

الزيادة وسببها فيكون معنى قولهم شرقت البلاد أى كثر هبوب الرياح الشرقية حتى نسفت الماء وأظهرت الارض ثم سميت الارض شرقية باسم الريح وجمعت على شراقى مثل كرسى وكراسى وبختى وبخاتى

وأما النيل فهو فعل من نال ينال نيلا أومن نال ينول نولا يقال نولته تنويلا ونلته نولا اذا أعطيته والنيل اسم ماينال مثل الرعى للمصدر والرعى لماء يرعى وليس هذا من غرضنا ولكنه أمرعن فقلنا فيه

فتى نقص عن الست عشرة ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط وكنا قدسقنا فى الكتاب الكبير سنى الافراط والتفريط مذ الهجرة الى سنتنا هذه وأما هنا فانما نقتص ماشاهدنا على ماشرطنا

واتفق ان زيادة النيل بلغت فى سنة ست وتسعين وخمس مائة اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين أصبعا وهذا المقدار زاد رجدا فانه لم يبلغنا مذ الهجرة الى الآن ان النيل وقف على هذا الحد قط الا فى سنة ست وخمسين وثلثمائة فانه وقف على دون هذا المقدار باربع أصابع وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع فانه وقع نحو ست مرات فى هذه المدة الطويلة وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع فانه وقع نحو عشرين مرة وأما خمس عشرة ذراعا فا كثر من ذلك كثيرا ونحن نسوق أحوال زيادته فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وخمس مائة ثم نتبع ذلك بما حصل عندنا من علل ذلك وقوانينه فنقول ان العادة جارية ان تبتدى الزيادة من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابة ثم تنحط فدخل أبيب فى هذه السنة وابتدى النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت فى مائه خضرة سلقية ثم كثرت وظهرت فى رائحته دفرة كريهة وعفونة طحلبية كانه عصارة السلق اذا بقى أياما حتى يعفن وجعلت منه فى وعاء ضيق الرأس فعلاه سحابة خضراء فرفعتها برفق وتركتها تجف فاذا بها طحلب لاشك فيه ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة عنه صافيا لاخضرة فيه الا ان طعمه وريحه باقيان وتجد فيه أيضا أجساما صغارا نباتية مبثوثة كالهباء لاترسب وصار أرباب الحمية يتجنبون شربه وانما يشربون ماء الابار وأغليته بالنار ظنا منى انه يصلح بذلك كما وصى الاطباء ان يفعل بالمياه المتغيرة فزاد طعمه وريحه كراهة وسهكا فوجدت علة ذلك ان الاجزاء النباتية التى هى مبثوثة فيه

بلطف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطا أشد من الاول فيظهر التغير فى ريحه وطعمه أكثر ويصير ذلك بمنزلة الماء اذا طبخ فيه سلق أو فجل أو نحوه فان النار تمزج بين الماء ولطيف النبات وأما الماء الذى يصلح بالطبخ واياه قصد الاطباء فهو الذى تغيره بمخالطة أجزاء أرضية فانها تنفصل عنه بالطبخ لان الماء حينئذ يلطف فترسب فيه

ثم انه دامت خضرته أياما من رجب وشعبان ورمضان وأصبحت فى شوال وكان يصحب الخضرة دود وحيوانات اجمية وهذا التغير فى الماء يكون بالصعيد أكثر لانه أقرب الى المبداء والمعدن وانتهت زيادته فى الحادى عشر من توت الى اثنى عشرة ذراعا واحدى وعشرين أصبعا ثم انحط وورد فى شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم ويلتمس عوضه وذكر فيه ان مطرهم فى هذه السنة ضعيف وان النيل قليل المد لذلك

وكنا اقتصصنا فى ذلك الكتاب حال النيل فى هذه السنة وفى السنين الخوالى رجاء ان نعثر على نسب بينها واعراض لها نقف منها على المتجددات من أحوال النيل فى سنى الزيادة وسنى النقصان فيمكننا تقدمة المعرفة وأخذ الاهبة والانذار بالحوادث المتوقعة فان أقباط الصعيد يزعمون انهم يتكهنون على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن يجمعونه فى ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل وقوم يتكهنون من حمل النخل وقوم من تعسيل النحل

فرأيت الغالب من حال القاع انه اذا كان أقل من المعتاد كانت الزيادة فى تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الاكثرى فان أتت الخضرة فى أول زيادته وقبلها قوى الظن بضعف جريته فان طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة قوى الظن جدا بقلته فان دامت الخضرة فى أبيب اذن بقلة المد وعلل هذا ظاهرة أما كون قلة القاع دليلا على قلة الزيادة فلان المطر الذى هو علة الزيادة ينبغى ان يكون فيه من الكثرة ما يرد القاع الى الحالة المعتادة ثم يزيد عليها الزيادة المعتادة وهذه كثرة لاتفى بها أمطار كل سنة ولا توجد كل وقت مثاله ان القاع اذا كان ذراعا مثلا فينبغى ان تكون الزيادة خمس عشرة ذراعا حتى يبلغ ماء السلطان فان كان القاع ست أذرع احتاج من الزيادة الى عشر

أذرع

أذرع وكون هذا أيسر من الاول وأيضا فان جرية النيل الاصلية مادتها عيون وأما زيادته فمادتها أمطار ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك وأيضا فان المد الزائد على القاع أكثره في الغالب ثلاث عشرة ذراعا فاذا كان القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا لم يلحق ماء السلطان

وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة فلان النيل الماضي يغادر نقائع وغدرانا بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن فاذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بها وصبتها الى النيل ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها بل النقائع تغلب على الامطار المتصلة بها فتحيلها الى الفساد ويحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل الينا وكلما كانت الامطار أضعف وأقل كانت أيام جرية الخضرة أطول فاذا كانت أمطار قوية غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحدرتها بسرعة مغمورة بطين تجرفه بقوتها فيخفى منظرها ويتعفى أثرها وأيضا فان الانهار الخارجة من جبل القمر تجتمع بأخرى الى بركة عظيمة ذات مساحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل ولا شك ان هذه البركة راكدة فيطحلب ولا سيما شطوطها وضحاضحها فاذا وقع الوسمي وجرى اليها سيوله اثارت ما في قعرها وحركت ما كان ساكنا فيها وانكسح ايضا ما في الشطوط الى الاوساط وانسحب الى محل الجرية فاستصحبته وأما كون الخضرة ان أبطت دليل النقصان فلان أبطت مظنة الزيادة وغلبة الماء على هذه الاوشاب فاذا بقي على خضرته ابان زيادته اذن بقلته وهذه الاجزاء النباتية التي تصحب الماء انما هي حطام النبات المتكون في الماء وحوله كالبردي والديس والسمار والطحلب وغير ذلك فتتعفن فيه وتتصغر اجزاؤها وتنبعث معه ومما يوجب انبعاثها أيضا نقصان الماء من تلك البركة فان ماءها اذا قل اتصلت الجرية بقعرها فانسحب كدرها وراسبها واذا كانت غمرا كانت الجرية من أعلاها وصفوها فاعرف ذلك ولهذا لا تاتي هذه الخضرة الا في السنة التي يحترق فيها النيل وكلما كان احتراقه أشد كان ظهور الخضرة أكثر وفي السنة التي يكون نيلها غمرا لا يحترق لا ترى الخضرة لان كثرته لكثرة مبديه وارتفاع جريته عن مقر كدورته فاذا اجتمعت هذه الدلائل كلها أو جلها في سنة فظن ظنا قويا بان الزيادة قليلة فيها فهذه

فائدة هذا الاقتصاص وفيه فوائد أخر منها ان من يأتي بعد اذا أضافه الى ما يشاهده يوشك ان يعثر منه على مناسبة أو دلالة أخرى على مقدار الزيادة والنقصان في كل سنة ومنها ان أصحاب الاحكام النجومية اذا تأملوا المدد التي بين النقصانات والزيادات واعتبروا أحوال الكواكب والاقترانات فيها ومواقع مصر وبلاد السودان وأرباب الولايات فيها من الكواكب ومزجوا ذلك أمكن ان تقوم لهم مما يتكرر صورة تجربية في مقدار الزيادة والنقصان

فاني الى الآن لم أر المنجمي مصر بذلك عناية ولم أجد عندهم ما تسكن اليه النفس سوى كرولا ينبني على أصل

فانه بهذا الطريق استخرج معظم أحكام النجوم وذلك انهم شاهدوا حوادث أرضية تقترن بنصبات فلكية وحركات علوية ورصدوا ذلك فالفوه يتكرر فنسبوا تلك الحوادث الى تلك الهيئات والنصبات فصاروا متى عثروا في تسييرهم لحركات الاشخاص العلوية على مثل تلك النصبة والهيئة حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة

ويروى عن أهل التجربة من قدماء الاقباط انه اذا كان الماء في اثنى عشر يوما من مسرى اثنتي عشرة أصبعا من اثنتي عشرة ذراعا فهى سنة ماء والا فالماء ناقص

ورأيت بعض من شرح الثمرة لبطليموس ذكر في تفسير الكلمة الاخيرة التي يقول فيها النيازك تدل على جفاف الابخرة فاذا كان في جهة واحدة دلت على رياح تعرض في تلك الجهة واذا كانت شائعة في الجهات كلها دلت على نقصان المياه واضطراب الهواء وعلى جيوش تختلف فقال هذا المفسر اني لاذكر في سنة تسعين وما يتبين ان الشهب بمصر انتثرت وعمت الجو باسره فارتاع الناس لها ولم تزل تكثر فأيعض لذلك جزء من السنة يسير حتى ظمأ الناس وبلغ نيل مصر ثلاث عشرة ذراعا واضطرب الناس اضطرابا ازالت به دولة الطولوني من مصر وانتثرت في سنة ثمانمائة من سائر جهات الجو فنقص النيل ايضا ووقعت هزاهز واضطراب في المملكة وهذه لعمري دلائل قوية ولكنها عامة لجميع الاقاليم وليست خاصة بمصر فقط على انه ايضا قد وقع هذا الحادث بعينه في سنتنا هذه من تناثر الكواكب في اولها ونشيش الماء في آخرها وتغير ملك مصر فيها بعمه الملك العادل بعد حرب كانت بينهما

﴿ الفصل الثاني في حوادث سنة سبع وتسعين وخمس مائة ﴾

ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحيوة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد أيادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ثم تعدوا ذلك الى ان أكلوا صغار بني آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل

ورأيت صغيرا مشويا في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وأمراة زعم الناس انهما أبواه فامر باحراقهما

ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصا كما تفعل الطباخون بالغنم ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح وحين ما نشم الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لامره وتعجبا من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخرا وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

ولقد رأيت امرأة مشجبجة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو المراهق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه

وفي بعض الليالي بعيد صلوة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو
الى جانبها اهتبلت غفلتها ساعة صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا وحكى لى
عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن

ورأيت مع امرأة فطيما الحما فاستحسنته وأوصيتها بحفظه فحكت لى انها بينما تمشى على
الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى
أدركها فارس وطرده عنها وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه ان يأكله وان الولد
بقى مدة مريضا لشدة تجاذبه المرأة والمفترس

وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين فى جميع أقطار
البلاد وأزقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء
الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم فى الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من
الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون
امرأة كل منهن تقر انها اكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل
مشوى فضربت أكثر من مائتى سوط على ان تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت
عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على مكان

واذا أحرق آكل أصبح وقد صار مأكولا لانه يعود شواء ويستغنى عن طبخه
ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ودخل فى ذلك جماعة من المياسير
والمساتير منهم من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة

وحكى لنا رجل انه كان له صديق أدقع فى هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله
ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم
رثاثة الفقر وبين أيديهم طبيخ كثير اللحم وليس معه خبز فرابه ذلك وطلب المرحاض
فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمى وباللحم الطرى فارتاع وخرج فارا

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يتصيد الناس باصناف الحبائل ويجتلبونهم الى مكامنهم
بانواع المخاتل وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابنى أما أحدهم فان أباه خرج فلم
يرجع وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على ان يصحبها الى مريضها فلما توغلت به

مضائق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت دره‍مها وانسلت وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضه في الشارع بزعمه وجعل في اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويضاعف الاجر ولمثل هذا فليعمل العاملون ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله دارا خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج ليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد ينفع فرع الطبيب لما سمع ذلك والقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها بالسعادة فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فاخفاها عنه خوفا منه أيضا فقال قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل

ووجد بافطيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الآدمي وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه فقال خفت اذا دام الجدب ان يهزل الناس

وكان جماعة من الفقراء قد آووا الى الجزيرة وسنروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ففطن لهم وطلب قتلهم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام بني آدم شئ كثير وخبرني الثقة ان الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة

ومما شاع وسمع من لفظ الوالي ان امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة وان قوما ستدعوها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فالفته كثير اللحم مباينا للحم المعهود فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت ن فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبي وه‍ي معلقة آرابا فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها آرابا لحم فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه في خفية بثلثمائة دينار ليحقن بذلك دمه

ومن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا وزوجها غائب في الخدمة وكان يجاورها صعاليك فسمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى فالفته لذيذا فاسترادتهم فزعموا انه نفد فسألتهم عن كيفية عمله فاسروا اليها انه لحم بني آدم فواطأتهم على ان يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواريها خوفا منها

فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجئ قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد في جوفها

ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه وانما هو شيء صادفناه اتفاقا بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره

وأما من يحبس ذلك بدار الوالي فانه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحد اثنان وثلاثة وأكثر ووجد في بعض الايام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصا

وكان عند جامع ابن طولون قوم يختطفون الناس ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بدين ممن يبيعنا الكتب فافلت بجريعة الذقن

وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافه فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج عن أهله فلم يرجع اليهم ففرق كثير

وحكى لي من أثق به انه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه فانكر عليها فزعمت انه زوجها وكثير ما يدعي الاكل ان المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ورؤي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتي وليس باجنبي مني ولان آكله أنا خير من أن يأكله غيري

وأشباه هذا كثير جدا حتى انك لا تجد أحدا في ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن

ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي

وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك وأعجب ما حكى لي انه عاين أرؤس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة

وهذا

وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فاني وان كنت قد اسهبت اعتقد اني قد قصرت

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولاسيما طريق الفيوم والاسكندرية وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الاجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم وتساهموا اسلابهم وظفر الوالي منهم بجماعة حمل بهم وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذي خصه دون رفقائه سنة آلاف دينار

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فامر لا يطيق علمه الا الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الامر

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك ان الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت أو من هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال وكان يرفع من القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمس مائة وأما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون ثم بآخرة عجزوا عن رميهم فبقوا في الاسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها والميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه

وأما الضواحي والقرى فانه هلك أهلها قاطبة الا ماشاء الله وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات والقرى الكبار كقوص والاشمونين والمحلة ونحو ذلك ومع هذا أيضا فلم يبق فيها الا الاقل القسم وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أساسه وليس له من يأخذ

حدثني ذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضده به قول الآخر قال أحدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في الارض ولا في السما فتخللنا البيوت فالقينا أهلها كما قال الله (عز وجل) (جعلناهم حصيدا خامدين) فتجدسا كن كل دار موتى فيها الرجل وزوجه وأولاده قال ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكرلنا انه كان فيه أربع مائة دكان للحياكة فوجدنا ها كالتي قبلها في الخراب وان الحائك في بير حياكته ميت وأهله موتى حوله

فخضر في قول الله تعالى (ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) قال ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيس وهو مشحون بموت أهله قال واحتجنا الى الاقامة به لاجل الزارعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم قال ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها

ومن عجيب ماشاهدت انى كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كانهم القرب المنفوخة هذا من غير ان نتقصد رؤيتهم ولا احطنا بعرض البحر وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فراينا أشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كاشبهها ابن حجر بانابيش العنصل وخبرت عن صياد بفرضة تنيس انه مر به في بعض نهار اربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح

وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار انها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم

وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحوف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق

وكثيرا ما كانت المرأة تملص من صبيتها في الزحام فيتضورون حتى يموتوا

واما بيع الاحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة وعرض على جاريتان مراهقتان بدينار واحد ورأيت مرة اخرى جاريتين احداهما بكر ينادي عليهما احد عشر درهما

وسألتني امرأة ان أشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام فقالت خذها هدية وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بان يشتروهم أو يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك

وأعجب من جميع ما اقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الايات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعوون مغمسون في بحر ضلالاتهم كأنهم هم المستثنون فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهولاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها نفر وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعدما كان كل قطر منها قدر مدينة في زحمة من الناس حتى ان الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها خال خراب وان ربعا ان أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى أربعة أبيات اسكنت من يحرس الموضع

ولم يبق لاهل المدينة وقود في تنانيرهم وافرانهم وبيوتهم الا خشب السقوف والابواب والزروب

ومما يقضى منه العجب ان جماعة من الذين ما زالوا محدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجرة في القمح ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه احترق في برمودة احتراقا كثيرا وصار المقياس في أرض جرز وانحسر الماء عنه نحو الجيزة وظهر في وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات أبنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في أبيب من السنة الخالية ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ثم تناقصت الى ان ذهبت وبقي في الماء اجزاء نباتية منبثة فقط وطاب طعمه وريحه ثم أخذ في رمضان تنمى وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقاس فيه ابن أبي الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ في زيادة ضعيفة أضعف من

السنة الخالية ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذى القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد أصبعا ثم وقف ثلاثة أيام فايقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ في زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذى الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة أصبعا ثم انحط من يومه وانهزم على ذوره ومس بعض البلاد دخلة القسم فكأنما زارها طيف خياله في الحلم

وانما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنا فاروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير ان القرى خالية عن فلاح أوحرات أصلافهم كما قال الله تعالى (فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم) وانما أرباب الجدات يجمعون شدادهم ويلتقطون افرادهم وقد عز الحراث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك

وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه وكثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها اصوى وعطب

ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير الاردب والفول والشعير بأربعة دنانير وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنانير

ومن الله سبحانه يرجى الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده

(الفصل الثالث في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة)

ودخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزايد الى زمان فيها تناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره أصلا

وقل خطف الاطعمة من الاسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة وانحطت الاسعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول وخفت المدينة بأهلها واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة وألف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي

وحكى لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر فلم يبق الا خمسة عشر منسجا وقس على هذا سائر ماجرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين واساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصريين أو اقل من ذلك

وأما الدجاج فعدم رأسا لولا انه جلب منه شئ من الشأم وحكى لي ان رجلا مصريا شارف الفقر فالهم ان اشترى من الشأم دجاجا بستين دينارا وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانى مائة دينارا ولما وجد البيض يبيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم اربعا واستمر على ذلك واما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا

وأما الافران فانما توقد باخشاب الدور فيشترى الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابها ياما ثم يشترى آخر وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد زاعرا

وكثيرا ما تقفر الدار بما لكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل اخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومة وكذلك أيضا يفعلون بدور الكرا

وأما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيرا من أهلها موتى فيها ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر فى غاية العمارة وأهلها فى غاية الكثرة

وأما الضواحى وسائر البلاد فيباب رأسا حتى ان المسافر يسير فى كل جهة أياما لا يصادف حيوانا الا الرمم ماخلا البلاد الكبار كقوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية فان فيها بقايا واما ما عدا هذه وأمثالها فان البلد الذى كان يحتوى على ألوف خال او كالخالى

واما الاملاك ذوات الاجر المعتبرة فان معظمها خلاء ولم يبق دأب أهلها الا حراستها بسد ابوابها وتحصين مسالقها او اسكانها من يحرسها باجرة اللهم الا ما كان من الملك فى قصبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة وأعرف ربعا فى اعمره وضع بالمدينة

كانت اجرته فى الشهر مائة وخمسين دينارا فعادت فى هذه السنة الى نحو عشرين دينارا وأخرى فى مثل موضعه كانت أجرته فى الشهر ستة عشر دينارا فعادت الى فويق الدينار وجميع مالم نذكره على هذا القياس أفهمه

والذى دخل تحت الاحصاء من المرتى ممن كفن وجرى له اسم فى الديوان رسمه منبعثه فى مدة اثنين وعشرين شهرا أولها شوال من سنة ست وتسعين وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين مائة ألف نفس واحد عشر الفا الا احادا وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دورهم وفى اطراف المدينة واصول الحيطان وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين وجميع ذلك نزر جدا فى جنب من هلك أو أكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات وبخاصة طريق الشام فانه لم يرد أحد من ناحيته فسألته عن الطرق الا ذكر أنها مزروعة بالاشلاء والرمم وهكذا ما سلكته منها

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد ولا سيما عند وقت الزراعة فلعله يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين حكى لنا ان الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا

وباشرنا زراعة لبعض الرؤسا فارسل من يقوم بامر الزراعة فجاء الخبر بوتهم أجمعين فارسل عوضهم فمات أكثرهم هكذا مرات فى عدة جهات

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية ان الامام صلى يوم الجمعة على سبع مائة جنازة وان تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر الى أربعة عشر وارثا وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت فى زمن اليازورى وعلى يديه وكان وزيرا ظالما فجلى عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكأن هذا الحادث تقاص فى الطبيعة

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطبائهم بمصر ممن ينتابنى سوى من سبق ذكرهم ان استدعاه رجل من زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة فلما حصل فى المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل فى عنقه وهقا وحرث المريض تنصيبه غير انه لم يكن لهما

معرفة

معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجه فتسامع الناس ودخلوا فخلصوا الشيخ مرتثا وبه رمق يسير وقد كسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه واحضر القاتل الى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت فقال الجوع فضربه ونفاه

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس ان حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس فهبوا من مضاجعهم مدهوشين وضجوا الى الله سبحانه واستمرت مدة طويلة وكانت حركتها كالغربلة أو كخفق جناح الطائر وانقضت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الابنية واصطفقت الابواب وصرصرت السقوف والاخشاب وتداعى من الابنية ما كان واهيا أو مشرفا على السقوط ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين الا انها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان في هذه الليلة برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة وفي نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة

ثم تواترت الاخبار بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها والذي صح عندي أنها حركت في ساعة واحدة طائفة من الارض من قوص الى دمياط والاسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى ولا أعرف في الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فانها لم تنلها الا نكاية يسيرة وكانت نكاية الزلزلة ببلاد الافرنج أكثر منها في بلاد الاسلام كثيرا

وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط ونواحيها والى جزيرة قبرص وان البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره وانفرق في مواضع وصارت فرقه كالاطواد وعادت المراكب على الارض وقذف سمكا كثيرا على ساحله

ثم وردت كتب من الشام ومن دمشق وحماه بشرح أخبار الزلزلة ومما اتصل بي من ذلك كتابان اوردتهما بلفظهما

(نسخة الكتاب الوارد من حماة)

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمور مورا وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة وأتت دفعتين في ذلك الوقت أما الدفعة الاولى فاستمرت مقدار ساعة أو تزيد عليها وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماة مع اتقانها وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلبك مع قوتها ووثاقتها ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة الى الآن ما اذكره

ثم حدث في يوم الثلاثا السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في علمها اليقظان والنائم وتزعزع لها القاعد والقائم ثم حدثت في هذا اليوم أيضا وقت صلاة العصر ووصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة افسدت فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه وغدة مساكن تساقطت على أهلها فهلكوا

(نسخة الكتاب الوارد من دمشق)

المملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر وأقامت مدة قال بعض الاصحاب انها مقدار ما اقرأ سورة الكهف وذكر بعض المشايخ بدمشق انه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرافة من الجامع واحدى الموازن وتشقق أخرى وقبة الرصاص يعني النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور

وذكر عن بلاد المسلمين ان بانياس سقط بعضها وصفد كذلك ولم يبق بها الا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين ونابلس لم يبق بها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر ان القدس سالم والحمد لله

وأما بيت جن فلم يبق منه ولا اساس الجدران الا وقد أتى عليه الخسف وكذلك أكثر بلاد حوران غارت ولم يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية ويقال ان عكة سقط أكثرها وصور ثلثها وعرقة خسف بها وكذلك صافيثا

وأما

وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يجمع منه الريباس الاخضر فقال ان الجبلين انطبقا على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتى رجل وقد اكثر الناس فى حديثها

وأقامت بعد ذلك أربعة أيام تحدث فى النهار والليل

ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل (٥)

ومن عجيب ما شاهدنا ان جماعة ممن يتنابى فى الطب وصلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فأخبرنا ان بالمقس تلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه اقل من الموتى به تحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما افادنا علما لا نستفيده من الكتب اما انها سكتت عنها أولا يفى لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها والحس أقوى دليلا من السمع فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فان الحس أصدق منه

ثم بعد ذلك يتحيل لقوله مخرج ان أمكن فمن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد أطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك وقولنا الكل انما نعنى به هاهنا جالينوس وحده فانه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج الى لسان العرب

والذى شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا واعتبرناه ماشاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه وكذلك فى أشياء أخر غير هذه ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة فى ذلك نحكى فيها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس ثم انى اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم

ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر وتتفرق وهذا الفك الاسفل لا يوجد في جميع أحواله الا قطعة واحدة

وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس انه مؤلف من ستة أعظم [illegible] واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ثم اني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال الا في جثتين وهو في الجميع مرئي المفاصل ولست [illegible] كما أنا [illegible] الفك الاسفل

ثم انا دخلنا مصر فرأينا فيها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل في الاحايين وان المار فيها يستوحش [illegible] ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا الى موضع يسمى الاسكرجة فرعون فرأينا الاقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم قد غلبت على الا[illegible] كام بحيث [illegible] تغلب على ترابها ورأينا هذه الاسكرجة وهي وهدة عظيمة حين ما أشرفنا عليها الجماجم بيضاء وسوداء ودكاء بعضها على بعض طبقات وقد أخفى كثرتها وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رؤوس لم يكن معها [illegible] يشبهها من ينظرها ببطيخ [illegible] جمع حتى صار كالبيدر ثم رأيتها بعد أيام وقد عرتها الشمس [illegible] تشبهها ببيض النعام المتراكم

ولما رأيت خلو تلك الحارات والاسواق من الناس [illegible] والاكام خيل الى انه فرار تحل ذا خلاء كانا وشغل آخر هذا مع انه [illegible] صادف [illegible] ما حكينا وأشباهه

ووجد في ذي الحجة بمصر [illegible] التأ كانه [illegible] وغرق [illegible] عنه الحال وانقطع خبرها [illegible] هذه المرأة

ومن عجيب الكائنات [illegible] المدة ان مولود [illegible] سبع وسبعين [illegible] برأسين وولد مولود آخر أبيض الشعر ورأيته وليس هو بياض الشيب بل يميل الى [illegible]

وولدت

وولدت في هذه السنة بغلة ولدا ميتا وبقي في دار الوالي أياما كثيرة وفي سنة ثمان وتسعين وجدت نخلة ذات لبن كان يخرج من حملتها كأنه خيط دقيق وأحضرت بدار الوالي مرات وآخر ما حضرت وعمرها أربعة أشهر

وأما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار أما أولا فانه احترق في طوبه ثم تزايد احتراقه حتى صار مخاضات للناس والدواب وظهرت الخضرة فيه في جمادى الآخرة الكائن في برمهات وتزايدت جدا في رجب حتى ظهرت في لونه وطعمه وريحه ثم تناقصت حتى ذهبت أصلا وانتهى احتراقه في رمضان وانحسر عن المقياس نحو ثماني مائة ذراع وطالع ابن أبي الرداد بانتقار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من بؤونه وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة الخالية ذراعين وابتدأ بالزيادة في السنة الخالية منذ هذا اليوم فاما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة سوى أربع أصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا ان حادثا وقع بقوهته وعند مبدأ جريته ثم أخذ في الزيادة حتى انسلخ أبيب وهو على ثلاث أذرع ووقف يومين فاشتد هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ثم انه اندفع بقوة قوية وزيادات متداركة وجبال من المياه متدافعة فزاد ثماني أذرع في مدة عشرة أيام منها ثلاث أذرع متوالية وانتهى في رابع توت وهو الثاني عشر من ذي الحجة الى ست عشرة ذراعا تنقص أصبعا وأقام يومين ثم أخذ ينحط متباطيا وينصرف رويدا

فهذا ما قصدت اقتصاصه من أحوال هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيد المرسلين سيدنا محمد النبي
الامي وعلى آله الطيبين
الطاهرين

م